المقتطف

الجزء الخامس من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ مايو سنة ١٩٤٧
١٩ جمادى الثاني سنة ١٣٦٦

وطننا الشرق

الساكت على الحق شيطان أخرس . صدق رسول الله .

وأشد ما يكون السكوت على الحق خطراً على مستقبل الأمم ، أن يروح زعماؤها يغرونها بأنها في سبيل النجاح وهي في الواقع في سبيل الانحلال والضعف .

خطأ أن تقاس عظمة الأمم بعدد الأفراد أو بالثروة أو بالأبنية والعمائر ، إذا كانت نفوس الأفراد خراباً ، إلا من أوهام العظمة ، وخيالات القوة والفتوة ، وفتنة المظاهر المرئية ، ومن وراء جمَّاع هذه المظاهر انحلال يشمل جميع المرافق ، وبخاصةٍ إنحلال في العقلية وإنحلال في الفكر ، وإنحلال في الأخلاق .

حفنة من المقدونيين فتحوا العالم ، ودوَّخوا الشرق برمَّته في زمان الإسكندر المقدوني . ودوَّخ هانيبال رومية العظمى بجيش خليط من القراطجة والغال والنوميديين وأهل إسبانيا ، وكاد يقضي على مجد الدولة الرومانية . وبضعة آلاف من العرب فتحوا الدنيا من نهر السند الى بحر الظلمات . وفي العصر الحديث حكمت بريطانيا خمس العالم ، والإنجليز لا يتجاوزون الأربعين مليوناً من الأنفس .

آية ذلك كله أن نفوساً عامرة تستعبد نفوساً خربة ، وأن أخلاقاً متماسكة تستقوى على أخلاق منحلة ، وعقولاً تفكر تخضع عقولاً جامدة ، وأفكاراً مثالية تستعلي على الأرضيات .

ونحن الشرقيين في هـذا الطور الذي هو في الواقع طور انقلاب حقيقي ، إنما نتوهم أننا نتطوَّر الى الأصلح ، وإننا نقتدي بالمثل و ننتفع بالمثلات ، في حين أن العالم يجرنا وراءه جرًّا ويشدّنا الى عجلته شدًّا ، كأننا الصخور لا تتحرك إلاَّ بالدفع القوي الشديد ، وكأننا الموتى ينقلهم الأحياء ، أو الدمى تتلاعب بها الأيدي ، أو الـكرات تتدافعها صوالجة الفرسان ، أو علامات صُمّ تحركها أيدي اللاعبين على رقعة الشطرنج .

ما أردت بهذا تسفيهاً ، ولا أردت به تثبيطاً للهمم ولا قتلاً للحوافز . وإنما أريد به أن أرفع عن الحقائق خِمار الباطل ، وأن أفتح العيون على الوقائع كما هي كائنـة ، لا كما تصورها لنا الاوهام . وفي هذا وحده محك الحياة الأممية وقوة الشعوب : إن أرادت الحياة واجهت الحق ومضت الى الحقيقة ، فخفرت من قواها وحشدت من كامن عنفوانها ما تستقوى به على أسباب الضعف .

هذه فلسطين تأكلها الصهيونية ، وتسهر على قتلها قوى اليهودية في أنحاء العالم ، ونحن نسبـح في أحلام . يقول المسلمون منَّـا أن أمة محمد بخير . ويقول النصارى إنّ الأمر لله . نعم أن أمة محمد بخير ما دامت تأكل وتشرب ، وإن أكلت التراب وشربت الـكدر . ونعم مرة أخرى أن الأمر لله ، ولـكن أمر الله في هـذه الدنيا مع الأقوياء ، لا مع المستذلّـين الخوارين ، الذين تتفجر في حجورهم قنابل الصهيونية ، وهم على صلواتهم عاكفون ، كأنما هذه الدنيا صلاة وصوم وزكاة ولا شيء غير هذا . وما كان الدين إلاَّ سبيلاً للقوة ، وما كانت العقيدة إلاَّ أداة الحرية والاستقلال والتنعم بمثاليات الحياة .

وهذا شمال أفريقية تدس بريطانيا في شرقيه أصبعها المسمومة ، وتضحك فرنسا على ذقون أهل الجزائر وتونس ومراكش ، وتعمل على تفرقة هؤلاء العرب ، والعـالم العربي كله واقف ينظر كأن هذه الدنيا لا تحف به ، وكأن أهل هذه البلاد من المريخ أو من زحل .

قطعت فرنسا بين أهل شمال أفريقية وبين العالم العربي كل صلة . فلا تدخل هنالك مجلة أو كتاب أو صحيفة إلاَّ مهرَّبة ، كأن العقل العربي في غير تلك البلاد لا يُـنتج الا مسمو تخشى فرنسا أن تسمم أهل المغرب الأقصى حنـوًّا منها وعطفـاً وإشفاقاً . ويدخل مصر قلب العالم العربي، ثمانين صحيفة فرنسية كلها سمّ زعاف ، وكل دعايات سياسية وغير سياسي

وكلها فجور وإثم ، وإثارة للشهوات الخسيسة ، ونحن وقوف ننظر كأن الأمر لا يعنينا في شيء .

* * *

وفي مصر ، ومنها يتطرّق الأثر إلى العالم العربي ، صحافة تمثل مناطق النفوذ الدولي في هذه البلاد ، ونمت في غيرها من أرجاء الشرق ، فهذه صحافة للدعاية الأمريكية ترمينا بكل جائحة نكراء ، وداهية ليلاء ، من غثاثات ما يلقي به الغرب في سلة المهملات ، فيصيب من أخلاقنا انحلالاً ، ومن جيوبنا ثروات ، وتلك صحف أخرى تروّج لفرنسا الغاشمة الآثمة المعتدية على شرف العرب وحرية العرب ، تلك الدولة التي تحاول فرنسة شمال أفريقية وقتل العربية والاسلام في نفوس ناشئتها وجعلها ولايات فرنسية تمثل في برلمان فرانسا ، وتدين بأدب فرنسا ، وما تعدّ فرنسا من هذه البلاد إلاّ رجالاً تقودهم الى القتل في ميادين الحرب دفاعاً عن أرضها فيذهبون فدية لأبنائها ، فيراق الدم السامي الذميم ، فداءً للدم اللاتيني الكريم . وهذه انجلترا تتغلغل بدعايتها السّامة في جسم الشرق فتنصر حزباً على حزب ، وطائفة على طائفة ، وتلعب بعقول أولاء وهؤلاء ، ومن وراء ذلك كله مصالح انجلترا لا تعرف في سبيلها ذمة ولا شرفاً ولا وفاءً ، وتجد منا من يقولون إنهم شرفاء ، وإنهم معقولون ، وزاد الطين بلة أن هؤلاء الشرفاء المعقولين قد رموا الشرق بكل أفاق مجرم من أهل شرق أوربا الدائنين بالصهيونية وأسكنوهم فلسطين التي هي كبد الشرق ونور عينه المبصرة ، زاعمين أن هؤلاء القتلة السفاحين مظلومين مشرّدين ، فباسم الانسانية ينصفون ، ولكن بقطعة من أرض العرب وعلى حساب العرب . على أن هؤلاء إنما ينظرون إلى شرق الأردن باعتباره فلسطين الشرقية وإلى لبنان والشام باعتبارهما فلسطين الشمالية ، والى بلاد العرب والعراق ومصر باعتبارها مناطق النفوذ الصهيوني . ومع قيام كل هذه الحقائق التي تدمغ جبين أعق الناس للحق ، تحاول بريطانيا أن تثبت من أقدامهم ، وأن توثق لهم في فلسطين ولو جلد ضباطها وخطف قضاتها جهرةً من منصّة العدل في رائعة النهار ، ولو عجزت عن تنفيذ حكم الاعدام في مجرم قضت العدالة بأنه عضو فاسد في جسم الجماعة الانسانية ، وتقف مترددة بين أن تقدم وبين أن تحجم ، كأنما هذه الصهيونية هوّة سحيقة تكاد تبتلع مَنْ ؟ .... تبتلع بريطانيا . كلاّ ، وإنما هي

السياسة التقليدية ، سياسة الجور والعدوان والظلم الصارخ والأفك الموروث . سياسة شرق يؤكل وغرب يأكل .

***

ليس كلامنا هذا بمحتاج الى دليل منطقي وقد قامت عليـه الأدلة المادية تؤيّـده وتدفع عنه الشبهات . هو الحق الصارخ المدوّي : والساكت على الحق شيطان أخرس .

أنظر ماذا يقول الصهيونيون [١] .

« لا نقاتل في سبيل تحقيق حصـة معينة من الهجرة اليهودية ، بل نرمي الى تحقيق الهدف التاريخي الذي تتوخاه أمتنا : وهو تحرير أرضنا من الحكم الأجنبي » .

١ — أصبح لهؤلاء وطن يريدون تحريره من نير الحكم الاجنبى : بالطبع حكم العرب وحكم الانجليز . هل سمعتم أيها العرب بسفاهة تعلو هذه السفاهة . أو وقاحة تبذ هذه الوقاحة ؟ أو رأيتم وحوشاً كواسر تود أن تلغ فى دماء العرب ، أشد من هؤلا افتراساً أو لصوصاً أنهم لصوصية ؟

يقولون :

« إن صداقة الشعب البريطاني لأمتنا أسطورة تمزقت إرباً في هـذا الجيل ولا سيما في أثناء إبادة ستة ملايين يهودي في أوربا .

٢ — الانجليز الذين عادوا العرب وقمعوا ثورتهم الحقة بكل سلاح دفاعاً عن اليهود والصهيونيين قبيل الحرب العظمى ، الانجليز الذين لموا شملكم على حساب العرب ، وأسكنوكم أرض العرب عدواناً وظلماً ، الانجليز الذين وضعوا السلاح في أيديكم لتقتلوا العرب وتنتزعوا عنوة أرض العرب ، تمزقت صداقتهم بالنسبة اليكم فى هـذا الجيل . لماذا ؟ لانهم لم يحولوا بين هتلر وقتل ستة ملايين يهودي . ولكن اسقوا أيها الصهيونيون أحلافكم القدماء وأعداءكم اليوم هذه الكأس المرة ، فانهم ولا شك يستحقون ما هو أمر منها مذاقاً .

يقولون :

« سنعمل على مواصلة النضال فيما وراء حدود فلسطين . طبيعي أن نستمر على الهجرة غير المشروعة .

---

[١] نقلت الصحف أن مراسل وكالة « اليونيتدبرس » وجه الى الارهابيين في فلسطين أسئلة تلقى عنها ردوداً نقتطف منها هنا ما نعلق عليه . الاهرام ١ / ١ / ١٩٤٧

٣ — معنى هذا أيها العرب أن البحر وراءكم والعدو أمامكم ، الصهيونيون يتطلعون الى ما وراء فلسطين . ألم يمش يهودي في شرق الاردن بقدمه ؟ ألم يخرج موسى بشعب اسرائيل من مصر ؟ أليس لليهود متجر في العراق ؟ أليس لهم صيرفي في الشام ؟ أليس لهم أفاك أو قصاب في لبنان ؟ أليس لهم جالية حقيرة في اليمن ؟ أليس لهم بقية في بلاد العرب ؟ فكيف إذن لا يتطلعون الى ما وراء فلسطين .

يا أبناء العرب ذوقوا فتنتكم .

يقولون :

إذا هاجمنا العرب الذين لا نسعى الى قتالهم فسنحمي أنفسنا . وإذا شنوا هجوماً على المستعمرات اليهودية فسنرد عليهم بالحرب .

٤ — المعنى المفهوم من هذه العبارة ، على حد أسلوب الشراح ، ان العرب الدخلاء إذا هاجمونا نحن الاصلاء ، فسوف نثخن فيهم ونقتلهم شر قتل ، أما الهجوم على المستعمرات اليهودية فمعناه الحرب . الحرب تعلنها دولة الافاقين على أمجاد العرب . أما القول بأنهم لا يسعون الى قتال العرب ، فسره خدعة عجيبة ، هي أن هنالك عدواً ثالثاً هو الانجليز ، فاذا تخلص الصهيونيون من الانجليز ، فالطبيعي أن يتحولوا الى العرب ليخرجوهم من أرضهم .

يا أبناء العرب ذوقوا فتنتكم .

* * *

ذوقوا فتنتكم . ذوقوا مرارة الانقسام والغفلة والتهاون . ذوقوا مرارة التواكل والبغضاء والتقاطع . ذوقوا ما تنتج سخائم الأنفس وحفيظات الصدور .

من العرب الآن من يعامل يهوداً ، ومنهم من يمد يده لليهود ، ومنهم من يشارك اليهود ، ومنهم من يُشجّع اليهود على السيطرة على الصحافة العربية ، قلب هذه البلاد النابض ، ولسانها القائل ، وعينها المبصرة ، ووعيها الحي .

نعم . صادقوا اليهود ليخرجوكم من أرضكم ، صادقوهم ليقتلوكم ، عاملوهم ليسرقوكم ، صاحبوهم ليضلوكم ، ثقوا بهم ليفسدوكم ، قدّموا اليهم أيديكم ليلقوا بكم في جهنم .

يا أبناء العرب ذوقوا فتنتكم .

* * *

ولنعد بعد ذلك الى فرنسا الغاشمة ، عدوة الاسلام وعدوة المسلمين ، فننقل شهادة واحد من أهلها . قال الاستاذ جوستاف لوبون (١)

---

(١) حضارة العرب ص ٩٣ الترجمة العربية للاستاذ زعيتر

« ويجمع أولئك الحضريون والأعراب على مقت الأوربيين القاهرين لهم وحقدهم الشديد عليهم . ويضحي الجزائري ، الذي نصفه بالخليّ المتردد المكسال القانع الوضيع المتزيد ، بماله ونفسه . ويشترك في كل عصيان وتمرد للخلاص من حكم الأجنبي الذي فتح بلاده ، وقد تم إبادة عرب الجزائر بوسائل منظمة كالتي اتخذها الامريكيون لابادة اصحاب الجلود الحمر . ولكن الذي اعتقده هو أن الفرنسي لن يستطيع حمل الجزائري على التفرنس ، وان من المتعذر أن يسود السلام في قطر واحد بين العرب والفرنسيين الذين ينتسبون الى عرقين مختلفين . وقد سمعت هذا الرأي الذي يجتنب تدوينه في الكتب عادة من جميع أولي البصائر في الجزائر ، واني أوافق عليه موافقة تامة » .

تمت أقوال جوستاف لوبون ووقع فيها بامضائه ، كما يقال في محاضر الشرطة .

وإذن ففي شمال أفريقية العربي المسلم معركة بين العرب وفرنسا ، معركة تحاول فيها فرنسا القضاء على أهل هذه البلاد بوسائل أمريكية استخدمت في القضاء على أصحاب الجلود الحمر . أما وأن فرنسا لا تستطيع اليوم ، وقد فتح العالم عينيه على مقاصدها الاستعمارية ، أن تمحو العرب من شمال أفريقية ، فهي تعمل على فرنستهم . وأول خطوة يخطوها مستبد أعمى في هذا السبيل هي القضاء على شيئين : اللغة والدين ، وبمعنى أفصح وأظهر : العربي والاسلام .

يأبناء العرب : ذوقوا فتنتكم . ذوقوا مرارة الغفلة . ذوقوا علقم ما أمدتكم به الباطني والتصوُّف والزهد وخلع رداء القوة التي هي روح الاسلام ، وارتداء أثواب الضعف والمسكنة والذلة ، التي هي روح الوثنية .

يأبناء العرب : لقد أقمتم لكل معنى من معاني الضعف وثناً عكفتم عليه ، فحطموا اليو هذه الأوثان ومزّقوا أغلالها وارموا في وجه كل فرنسي بحجر من أحجارها ، وفي و كل مستعمر يحاول أن يأكلكم بقذيفة من بقاياها . فان لم تفعلوا فأنتم المأكولوز ، وأ المفرنسون وأنتم المكلنزون ، وأنتم المؤمركون ، وأنتم الخاسرون في الدنيا وفي الآخرة وإنما أخراكم هي ثمرة دنياكم ، والأمر بيدكم ، فاذا أردتم فان ارادة الله معكم ، واذ تريدوا فقد أتتكم آياته فنسيتموها ، وكذلك اليوم تنسون ويحل عليكم عذابٌ مقيم .

يأبناء العرب : اذكروا دائماً قولة عبد الحميد طاغية الترك : إن أوربا تحاربنا حرباً دينية في قالب سياسي .

* * *

على أن فرنسا حتى بعد أن فتح العالم عينيه على مفاسدها الاستعمارية لا تزال تجري على سياسة الفرنسة في شمال أفريقية ، فأخذت تلوّح لاخواننا الشماليين باصلاحات فجة غثة ، لتصرفهم عن طلب الاستقلال وعن نواياها في « الفرنسة » ، وقد علمت من ثقة أن هنالك مشروعاً للتعليم كفيل بأن يفرنس شمال أفريقية في ربع قرن من الزمان ، يوضع الآن موضع التنفيذ الى جانب محاولات ترمي الى كف العيون عن النية الخبيثة المبيتة لأهل هذه الأقطار العربية الصميمة .

ولقد ننقل هنا شيئاً من تلك الدعاية الواسعة التي تنشرها فرنسا مظهرةً حدبها الكاذب على أهل تلك البلاد بعد أن أمعنت فيهم قتلاً وخمشاً وتجريحاً ، وبعد أن أنزلتهم أحط دركات الجهل والفقر والجوع ، وبعد أن نشرت في بلادهم شعور الخوف ، وأذاقتهم مرارة النقص في الأنفس والأولاد والثمرات (١) .

فقد نقلت الصحف دعاية فرنسية طويلة عريضة عن شمال أفريقية تحت عنوان « سياسة التقرب من المسلمين » ، وهي في الحقيقة الواقعة « سياسة فَرْنَسة المسلمين في شمال أفريقية » ، وهي في مجموعها ضحك على ذقون أهل الاسلام واهل الشرق ، دعاية ظاهرها التقرب وباطنها الاستعمار ، وغرس كل سيئة من سيئات الخلق الفرنسي في نفوس هؤلاء العرب ، واقتلاع كل فضيلة شرقية ورثوها مع الأجيال الطوال . ولقد حدثني نابه من أهل تلك البلاد فقال : ان أصحاب المسؤولية من الفرنسيين ، وهم بالطبيعة أولئك الذين يعملون على فرنسة شمال أفريقية ، يعتقدون أن أكبر عقبة في سبيل سياستهم الاستعمارية هو « القرآن » . فانظر بربك ماذا نكون اذا صحت هذه الرواية ، وهي ولا شك صحيحة ، ان لم تكن صحتها آتية عن طريق النقل ، فإنها صحيحة من طريق الواقع .

---

(١) أنظر الاهرام في ٢٠ من يناير سنة ١٩٤٧ .

جاء في تلك الدعاية أن فرنسا عفت عن متهمين جزائريين ، وانها عينت وزيراً مفوضاً مسلماً ، وعينت مستشارين مسلمين ورئيساً مسلماً لمحكمة الجزائر ، وشرعت تدرّس الحضارة الاسلامية في السوربون ، وأخذت تنظم الضمان الاجتماعي وتنظر في مشكلة الأيدي العاملة ، الى غير ذلك من الافك الذي يخجل أن يدعيه قاطع طريق لا حكومة متمدينة في القرن العشرين .

تمن فرنسا على أهل شمال أفريقية بذلك كأنما هي تقول لهم « أيها الافارقة » : أنظروا كيف أنزل عن كبريائي وأتدنى اليكم ، فأعين منكم وزيراً مفوضاً ، ومستشاراً مسلماً ، ورئيساً مسلماً لمحكمة !!!

اما اذا كان للخجل حمرة ، فانها ولا شك لم تعرف وجه فرنسا .

* * *

ان مشكلة فلسطين ومشكلة شمال أفريقية هما أعضل مسائل الشرق والغرب . على أن ما في تينك المشكلتين من تعقد وجمود إنما هو راجع قطعاً الى أن أوربا تحاربنا حرباً دينية في قالب سياسيّ . وإلاّ فأين الحق الذي ينادي به مُهرّجو السياسة الاوربية والأمريكية ، وأين حق الامم ، وأين تقرير المصير ، وأين حرية الشعوب الصغيرة ، وأين ضمان حقوقها ؟ أين كل هذا اذا كانت أبسط الحقوق الجلية الظاهرة تصبح بين أيدي هؤلاء مشكلات أعقد من ذنب الضب.

لقد خرج العالم من الحرب الأخيرة وقد طبقت آفاقه الدعايات صارخة بأن العدل قد محق القوة . ولكن لم يكد السلم ينشر رواقه حتى أنسنا من أصحاب العدل وأصحاب الحرية الذين شدخوا آذاننا طوال سنين بأنهم حفظة العدل والقوامين على الحرية ، إنهم انما يتبعون موحيات القوة ويتكلمون بلسان القوة ، وها هي ذي جيوشهم يعج بها الشرق وأسلحة فرنسا تروح وتغدو عبر أسيا لتقتل رجال الشعوب الصغيرة في أندونسيا والهند الصينية ومدغشقر باسم الحضارة التي تعمل على فرنسة كل شبر من أرض تطأه قدم فرنسية

إذا كان المبدأ الاساسي في العدل الدولي هو ذلك المبدأ الذي قرره ميثاق الاطلنطي

إذن يكون لكل دولة من الدول الحق في أن تناضل حرة طليقة في سبيل تقرير امورها الخاصة من غير ان تتعرض لعدوان دولة او دول اخرى . وهذا المبدأ إن كان من المبادىء المقررة في القانون الدولي ، إلا انه قد حاز قوة أكبر بأن أصبح الفكرة الاساسية التي قامت عليها هيئة الأمم المتحدة .

وبربك ما هو العدوان ؟ هو ان تتذرع دولة بالقوة لارغام دولة اخرى على الخضوع لأمرٍ لا تريده ، أو اتخاذ موقف تأباه أو يتعارض مع مصالحها . هو على الجملة تدخل بصورة من الصور في أمور دولة أخرى أو شعب يريد أن يكون ذا دولة تدخلاً تعززه القوة .

نضرب بذلك مثلاً دعوى الصهيونية في فلسطين . فان من الأشياء المسلمة في العرف الدولي أن طول العهد بامتلاك بقعة من الأرض ، يوثق حق أية أمة في امتلاك البقعة التي تسكنها . وإذا كانت هذه الحجة هي حجة كل قانون دولي او غير دولي يستند اليها شعب من الشعوب في امتلاك الأرض التي يسكنها ، كان حق العرب في فلسطين واضح لا يحتاج إلى تلك المؤتمرات التي لا ترمي إلا إلى انتزاع فلسطين من العرب بوثيقة يوقع فيها العرب لصالح الصهيونيين ، صنائع بريطانيا .

* * *

إذا كان ما يدعي الصهيونيون من حق في فلسطين راجع إلى وثائق تاريخية ، فانّ حق العرب يرجع إلى أكثر من ألف سنة ، وحق اليهود يرجع الى ذكريات كادت تعفّي عليها أحداث الزمن . واذا كان حقهم راجع إلى وعد بلفور ، فان هذا الوعد أشنع عدوان يذكره تاريخ البشرية جميعاً .

إن واجب كل عربي واضح لا يحتاج الى بيان . واجب يحفز كل عربي الى الجهاد بكل ما أوتي من قوة ومالٍ وجاه حتى يستقر حق العرب في فلسطين ، ويعترف الغرب أن الشرق يأبى الآن أن يؤكل كما أوكل في الأيام السوالف .

اسماعيل مظهر

العائدون

رأيتهم كما كنت أراهم قديماً ، يجلسون منفردين في شمس الشتاء أمام مقهى المعلم شيحة ، يترشفون القهوة ويدخنون الطباق في القصبات الطويلة ويسعلون ويبصقون على الأرض . وقد اطمأنت نفوسهم وخفّت حدّة الكبرياء التي كانت تملؤهم وقلّ التحدّي الذي كانت ترسله نظراتهم للناس في ازدراء واحتقار . واتجهت أبصارهم إلى تراب الأرض وكانت لا ترتضي السماء متجهاً لها .. تماماً تماماً ، كما كنت أراهم قديماً . ورأيته فيهم، قد عاد مثلهم ، إلى شمس الشتاء أمام المقهى يترشف القهوة ، وقد سكنت نفسه وخفّت حدّة الكبرياء التي كانت تملؤه وقلّ التحدّي الذي كانت ترسله نظراته للناس في ازدراء واحتقار واتجه بصره الى تراب الأرض . يا للأقدار ! . . إن عجلة الزمن لتدور دورانها السريع الترتيب ، وإنها لتقلب الأوضاع ثم . . ثم لا تلبث أن تعيدها . . ثم تقلبها لتعيدها ثانية ! . . لقد رأيته فيهم وعرفته سريعاً ، وكنت أنوي أن أحييه ، ولكنه زاغ مني ، أعني من نظراتي، واتجه ببصره إلى .. إلى تراب الأرض . . ولكن ؟ .. أكان اتجاهه للأرض وهروبه من مواجهتي ينسيني إياه ؟ . . مطلقاً ، لقد عرفته سريعاً ، ومرّت بخاطري كل أحداث قصته ، من بدئها حتى هذه اللحظة التي رأيته فيها . . إنها ليست قديمة إلى حدّ النسيان . . إنها قريبة لم يتعد عمرها السنة الرابعة . . أجل أربعة أعوام هي كل عمر قصته على التحقيق ، فقد كان ميلادها على بصري وسمعي وفي رعايتي . . إنني أذكر ذلك جيداً جيداً . . أذكر هذه الأمسية التي أتى فيها ذلك الفتى إلى منزلي يطلب مقابلتي ليخطب زكية خادمتنا الشابة ومعه أمها . وسمعت أم زكية وهي تقول لي : يا سيدي لقد جاءني هذا الشاب يخطب زكية ، وأنا كما تعرف يا سيدي أرملة جاهلة مسكينة لا عائل لي أو لبناتي اليتيمات، وقد قمتَ أنت يا سيدي برعاية زكية حتى نضجت في رعايتك ، وأريد منك اليوم أن تتم جميلك معها فتتولى

أمر هذا الزواج وتبحثه برأيك السديد ، فان رأيته صالحاً مناسباً ووافق رضى من نفسك فافعل . . . . والله لا يضيع أجر إحسانك ورعايتك لهذه اليتيمة » . وحين انتهت الأم من حديثها هذا ، بدأت أسأل الفتى عن اسمه وعمله وأسرته وحالته الاجتماعية . . إنه شاب في السادسة والعشرين من عمره تقريباً ، أسمر البشرة معروق الجسد له شارب صغير وشعر طويل لا تغطيه قلنسوة أو نحوها ، ويرتدي ثياباً أفرنجية ينبيء شكلها وحركاته هو فيها عن أنه حديث عهد بلبسها . . وحين سألته عن عمله أجاب بأنه عامل ، واستوضحته أي عمل يعمله فقال خرّاط ميكانيكي . قلت فهذا عمل حسن في صناعة ناجحة موفقة ، ولكن أين تعمل أفي مصانع الحكومة أم في مصانع الجيوش المحاربة ؟ قال باستعلاء : وتحدٍّ في مصانع الجيش البريطاني . . وعرفت منه أنّ أجره في الشهر يتعدى السّتة من الجنيهات ، وهذا مبلغ لا بأس به يكفي حاجة منزل معتدل لأسرة صغيرة تتكون من زوجين كسيد هذا وزكية . . ثم أتممت استيضاحاتي كلها منه ، وكانت كل إجاباته مما يطمئن تقريباً . وكانت أم الفتاة تجيب معه في معظم إجاباته . وكانت زكية تحوم حولنا متعللة بقضاء بعض الحاجات لتسترق السمع ولتطمئن على نفسها ، فكنت ألمح في عينيها لمعة الفرح والرضى ... لكنني مع كل هذا ، كنت أرى في عيني سيد هذا ، شيئاً غريباً يكاد يكون مناقضاً لما يبديه أمامي من تأدب وخشية .. أقول كنت أرى هذا الشيء الغريب في عينيه حتى بعد أن استعلمت عن عمله وبعد أن سألت عنه في موطنه القريب منا . . كنت في حالة تشبه عدم الرضى عن هذا الخاطب رغم تأكدي من صدقه في معظم ما أجابني عنه . لست أدري لماذا ؟ ولقد كاشفت زوجتي بشعوري هذا ، فأبدت موافقتها لي في هذا التشكك . ثم .. ثم عادت هذه الزوجة الطيبة فترددت وخالفتني وأخذت تلح عليّ في قبول هذا الزواج وإنهائه وترك هذا التشاؤم والتشكك ، بعد الذي رأته من إقبال الفتاة وسرورها . وبعد الذي نمي إليها من أن الفتاة تميل إلى الشاب الخاطب وأنها تبادله عاطفة وحبّاً قديمين . . والذي ألان من تشبثي ، ولم يبدّد من شكي شيئاً مع ذلك ، هو ميل أم الفتاة إلى إنهاء هذا الزواج ، ورضاؤها عنه . وكانت زوجتي الطيبة تقول لي : مالك متردّداً متشككاً ؟ فأجيبها بما في نفسي من قلق وحيرة وشك ، سببها هذا الشيء الغريب الذي كانت تنبئني به عينا الفتى ، ومن أن فتاة مسكينة

كزكية خدمتنا هذه الحقبة الطويلة من الزمن بنزاهة وإخلاص حتى صارت منا كالإبنة وصرنا منها كالأهل ، لا يجب أن نتساهل في أمر تزويجها هكذا سريعاً ولأول قادم ، بل يجب أن نتروّى وننتظر حتى يأتيها زوج مناسب معروف لنا أو لأمها من قديم، ونعرف أهله ونشأته وسيرته ونعرف له عملاً ثابتاً دائماً بدل العمل الموقوت في مصانع موقوتة كمصانع الجيوش المحاربة . . . وكنت أقول لها ، لزوجتي ، إن مجرّد مجيء أي شاب يشتغل في صناعة معروفة ناجحة بمصانع الجيش البريطاني ومرتبه يزيد عن ستة جنيهات وإنه يسكن في عطفة رُبَيّهْ بدرب الملحفية لا يكفي مطلقاً ضماناً لقبوله زوجاً . ايخيل إليّ يا زوجتي العزيزة الطيبة أنه فتى من هؤلاء الفتيان المتعطلين الذين يعمرون المقاهي البلدية ويسيرون في الطرقات يتسكعون في شمس الشتاء الدافئة أو ظل الصيف يتبادلون بذيء السباب والشتائم ويتجاوبون الضحكات الغليظة النابية ، وأنه إنما يكون رزق هذا العمل بسبب ذلك الرواج الذي سببته الحرب والذي لا يلبث أن يزول بزوال الحرب وبعدها يعود الفتى إلى رفقته وإلى تسكعه وإلى مقهاه البلدي وإلى تبادل السباب البذيء مع رفاقه . .

ولكن زوجتي هذه الطيبة القلب ظلت بي تجادلني وتحاورني وتقنعني بأنه مهما يكن من أمر ، فمن سيتزوّج هذا الفتى ؟ أليست فتاة كزكية يجعلها سيدة بيت وأم أولاد ؟ أفليسا هو وهي من بيئة متحدة في الفقر والجوع والشبع بل والطباع والعادات في الأغلب الأعم ؟

وكان آخر ما صنعته معي زوجتي في شأن هذه الزيجة ، أن دخلت عليّ حجرتي الخاصّة ذات مساء ، وأخذتني من يدي بقوة وقادتني نحو غرفة الخدم ، وكانت زكية بداخلها وحدها ثم أوقفتني بعيداً بحيث لا ترانا زكية بينما نراها نحن ونسمعها بسهولة ، فماذا سمعت وماذا رأيت ؟ يا لعجبي ويا لدهشتي ! . . هذه زكية تبكي بحرقة ومرارة وتندب حظها السيء الذي جعلني أقف حائلاً بينها وبين أمنيتها العزيزة في الحياة والتي هي الزواج من سيد بالذات . . رأيتها بعينيّ وسمعتها بأذنيّ تنتحب وتردد في ولولة حزينة مؤثرة : يا مصيبتي السوداء . . يا حظي التعس المنكود . . يا ربي ماذا صنعت من شرٍّ لسيدي حتى يحول بيني وبين راحتي وسعادتي . أجزاء إخلاصي له ولأولاده كل هذا الزمن يكون تعذيبي وتضييع حظي يا ربّ . . يا رب خذني إليك وأنه حياتي بدل هذا التعذيب والشقاء . . » وكلاماً آخر كثيراً غير ذلك

ثم تزيد فتلطم وجهها وتشد شعرها .. فقعدت متخاذلاً كئيباً وصوت زوجتي الطيبة يرن في أذني : أسمعت أرأيت ؟ أفبعد كل هذا لا تزال مصرّاً على انتقاء زوج آخر لها أصلح من هذا الزوج ؟

* * *

وتمّ الزواج .. أعني زواج زكية من سيد بعينه .. ومرّ عام للزواج وعام .. وتبع العامين عام ثالث ثم – ثم ماذا ؟ أكان زواجاً سعيداً موفقاً كما أمّلت زكية ، وكما تمنّت أمها ، وكما كانت ترجوه زوجتي ؟! .. الواقع أن الزواج ظلّ سعيداً عدة أسابيع بعد الزفاف أو لعلها بضعة شهور ، ثم أدركه شيء من الملل .. أعني ملل الزوج وضيقه بحياة الاستقرار والأمن والدعة والركون إلى منزل محدود تدبره فتاة عاقلة قانعة مثل زكية ، وراوده ميل وحنين إلى حياته القديمة والسهر مع رفقته القدامى الذين انتزعته منهم حياة الزوجية ، والذين أنعشهم رواج الحرب وتيسير العمل المستمر والكسب المتصل وزوال البطالة والتعطل والكساد .. فعاد إليهم ولقوه فرحين بعودته .. وسرّه أن رآهم ورأى المقهى في نشاط عجيب وانتعاش غريب وسمر لذيذ ونور غامر ودفء لطيف .. إنه تغيير شامل للحال القديمة ، فهذه الزحمة وهذه الحركة وهذا السرور ، ثم هؤلاء الرفقاء قد تغيرت جلستهم وتغيرت هيئاتهم وتبدلت مشروباتهم التي لم تكن قديماً تتعدى تنكة القهوة أو قصبة الطباق الطويلة فاستبدلت تنكة القهوة بأكواب الشاي والسحلب والبندق بل وبالخمر أيضاً ، واختفت قصبة الطباق الطويلة وحلت محلها النارجيلة الأنيقة . وراعته هذه التغييرات وتلك الانقلابات ، واستهوته ، وصادفت من نفسه غراماً وهوى فأقبل على السهر واندمج مع الرفاق وجاراهم في الانفاق والشراب والسهر وتردد معهم على دور السينما .. وهذه السينما هي الأخرى قد جدّت في حياتهم ولم تكن هواية قديمة فيهم وإنما شجعهم على ارتيادها وأغراهم بها هذا الرواج الجديد الذي سببه العمل المستمر والكسب المنظم .. وزادوا على السينما، لوناً آخر من ألوان المتاع هو بالضرورة لازم وهامّ لمن يسهر في المقهى ويشرب الخمر ويرى في دور السينما الرقص الخليع والأجساد الرخيصة العارية ، ويستمع إلى الأغاني الرقيعة ويشاهد المغامرات المبتذلة الدنيئة .. هذا اللون هو النساء وعشق النساء ومواعدتهنّ

وصحبتهن إلى دور السينما والسير معهن في الطرقات والأزقة المظلمة المحيطة بالمقهى . اندمج الزوج تماماً في هذه الحياة وأحبها وكلف بها وصار ينظر إلى البيت ، أعني زوجته وأولاده نظرة ضيق وكره . . وصار مرتبه لا يكفي لحياة هذا البيت ، ولهذه الحياة الساهرة اللاهية المعربدة ، وكثرت النفقات وزادت عن المرتب ، واضطر الزوج إلى الاستدانة والقرض ، والاستدانة لا تتم إلا برهن ، ومن أين له ما يرهنه ليحصل على المال ان لم يكن هذا الذي يرهنه قرط زكية أو خاتمها أو عقدها أو بعضاً من نحاسها أو أثاثها أو حتى ثيابها وثيابه . . وظلّ على ذلك وما يُرهَن لا يُرد . . وليقي الراهن معذور في عدم رد الرهنية فهو يعطيه المال برهينته على عِدّة فتمضي العِدة وسيد لا يرد المال ليأخذ الرهينة وليقي ينتظر وينتظر ثم يتصرف في هذه بالبيع أو نحوه . .

وتغيرت أخلاق الفتى ومعاملاته وأحاديثه تبعاً لكل هذا الذي جدّ في حياته فقسا على زوجته وعلى أولاده وضاق بها وبهم ، فالحديث الحاد المرتفع ، والسباب القاسي ، والضرب الموجع ، كل هذه صارت لازمات مكملة لشخصيته .

وكانت زكية تزورنا كثيراً وتشكو إلينا وتحدثنا بكل هذا وهي تتفطر حزناً وحسرة وكنت أستمع لشكواها وأتألم لها وأعيرها اهتماماً كبيراً . وأنظر إلى زوجتي نظرة تعرف معناها جيداً . إنها نظرة لوم وعتب قاسية . فقد كنت أرجو لزكية زوجاً يكافئها إخلاصاً وحبًا وعطفاً واهتماماً بشؤون البيت والأسرة ، وكنت بسبيلي لرد هذا الزوج المستهتر لولا . . لولا القضاء المقدور والقدر المسطور ، كما كانت زوجتي تقول .

تلك كانت أعوام هذا الزواج الثلاثة ، وذلك هو وصفها الدقيق الصادق لا تزيّد فيه ولا مبالغة ، بل قد يكون الوصف مقتضباً ناقصاً كثيراً جداً عن نفس الصورة الحقيقية . وما أدري ما الذي يشغلني ويهمني جداً ويرغمني ارغاماً على متابعة أخبار هذ الزواج وأحداثه ، مع اعتقادي الجازم بأنه واحد من عشرات ألوف الزيجات التي تمت بسبب هذا الرواج وذلك الانتعاش اللذين أوجدتهما الحرب ، لا أكثر ولا أقل . لست أدري ما سبب ذلك الاهتمام مني ، وما أدري ، بالضبط إن كان السبب هو قلقي على مستقبل فتاة كزكية خدمتنا باخلاص وأمانة توجبان الوفاء لها ؟ أم هو القلق على مستقبل أطفاله

من جراء سلوك هذا الزوج المستهتر الأحمق ؟ أم هو القلق على مستقبل عشرات الألوف من هاتيك الزوجات أمثال زكية اللائي كان رواج الحرب الموقوت سبب تزويجهنّ من عشرات الألوف من الأزواج المستهترين الحمقى أمثال سيد ؟ أم هو القلق على مستقبل مئات الألوف من أبناء هاتيك الزوجات وأولئك الأزواج ، الذين سيكوّنون جيلاً آخر حديثاً والذين سيصيرون ، حتماً كآبائهم عاطلين لا يجدون عملاً يقتاتون منه ولا يهتم بهم أحد ولا مجتمع ولا حكومات . والذين سيظلون في عطلتهم ينتظرون حرباً جديدة ليعيدوا سيرة آبائهم فيتزوجون وينسلون ألوف الألوف و .. و .. ؟ ؟ ربما كان كل ذلك جميعه هو مبعث قلقي وتفكيري وشغلي وتتبعي لأخبار هذا الزواج وأحداثه وأنبائه ! . .

وذات مساء ، بعد مرور هذه الأعوام الثلاثة ، وجدت زكية تدخل على حجرتي دامعة العين حزينة القلب . . وسألتها عن خطبها فما استطاعت أن تغالب البكاء إلاّ بعد فترة غير قصيرة . قالت لي : لقد طلقني الليلة ياسيدي . طلقني الآن وطردني بأولاده الثلاثة بعد ان أتى على كل ما أملك وأضاعه ماذا . . ماذا أصنع يا سيدي ؟ . لو كنت وحيدة لهان أمري ، لـكننا أربعة أنفس نحتاج الطعام والـكساء والمأوى الأمين ، وأمي مسكينة لا تـكاد تقوى على كفاية نفسها ويتيماتها ؟ .

ولم يكن الظرف مما يحلو فيه اللوم ، فعمدت الى مواساتها بكلمات طيبة ، ووعدتها بأن أكلف أحد المحامين بشكوى هذا الزوج الغادر المتمرد وإلزامـه بنفقاتها هي وأولادها ، واطمأنّ بالها بعض الشيء وخرجت من عندي وقد خفت حدة الألم في نفسها . ولم أكذبها الوعد ، فقد كلفت أحد المحامين المعروفين برفع دعوى النفقة وسارت الدعوى في طريقها الطبيعي وحكم لها بنفقة شهرية قيمتها ثلاثمائة قرش . وسرّني وسرّها هذا الحـكم السريع المعتدل ، ورحنا نتأهب ونعد العدة للتنفيذ وحجز قيمة النفقة من راتبه الشهري . لـكن . .

لم يكن تمرّد سيد على زكية ، وإيذاؤها ، والاستيلاء على متاعها وإضاعته ، ثم طردها وتطليقها ، هو كل ما كنت أتوقعه وأخشاه من هـذه الزيجة قبل إبرامها ، كما أخبرت به زوجتي الطيبة في حينه . . فقد تمّ ووقع بالفعل أقصى ما كنت أتوقعه ! . . فقد جاءتني زكية بعد شهرين من تاريخ صدور حكم النفقة ، ممتقعة الوجه واجفة القلب ! . . ماذا يا زكية ؟ هل من جديد ؟ وأجابت بذِلة وحسرة بالغتين : لقـد رُفت . . رُفت الفاجر وطرد من عمله في المُستغنى عنهم جزاء تمرده وإساءته إليّ . . لقـد استغنوا عنه ووفروه مع عديدين من أمثاله المتمردين . لـكني يا سيدي أرى أن هـذا الرفت والطرد ليسا عقاباً له أو مصيبة أصابتـه . . لـكنها مصيبة لي أنا ولأولادي بالذات . . من أين سآخذ النفقة التي قدّرتها

الحكمة ؟ من أين لي غذاء هؤلاء الصغار ؟! . . وبلغ بي الألم حدًّا كبيراً فضغطت أسناني بعضها ببعض ولم أستطع الكلام ، ولكن زوجتي اللبقة قالت على الفور وفي حماسة واندفاع ، هذا لا يهم .. معنا حكم ننفذه فإن عجز عن الدفع حبسناه وأدخلناه السجن ، وفي السجن مذلة له وانتقام كبير . وابتسمت أنا ابتسامة باهتة حزينة لهذه الزوجة الطيبة البلهاء ، ثم قلت موجهاً الحديث لصاحبة الأمر : إسمعي يا زكية ، لا أمل يا ابنتي في مثل هذا الرجل ولا فائدة وراء الحكم الذي تحتفظين به ، ولا في السجن الذي سيذله ويهينه . إذ ماذا ستأخذين أو تفيدين من سجنه وإذلاله ؟ اعتمدي يا إبنتي على الله وثقي بقدرة الله ورحمته . قالت : والله يا سيدي ما أملت في خير مطلقاً يصيبني منه وإني لعالمة بنهايته هذه من يوم أن حدثتني ونصحتني قبل الزواج فلم أستمع ولم أنتصح .. أذكر تماماً قولك لي إنها فورة الحرب ، وكثرة الأعمال التي تسببها الحرب ، وما تلبث الحرب أن تزول فيزول بزوالها كل ما سببته من فورة ومن نشاط ومن عمل ويسرّح ألوف هؤلاء العاملين ويعودون الى حياة التبطل وقد خلفوا وراءهم جيوشاً من الزوجات والأطفال يبحثون عن القوت والكساء . أجل أذكر كل ذلك .. ولكنه عمى القلب وضلال العاطفة أقصياني عن الطريق السويّ . لكن الآن يا سيدي ! قلت : ماذا ؟ قالت : أن أطرد ذكره من رأسي وأفكر جديًّا في أمري . قلت : فذلك هو الواجب . قالت : أريدك أن تأخذ بيدي . قلت : فأنا لن أتقاعس عنك . قالت : يمكنك يا سيدي بحكم مركزك أن تلحقني باحدى المستشفيات (تمرجية) في مستشفى قصر العيني أو مستشفى الملك أو مستشفى الأطفال . أي مستشفى » . .

وأعجبتني شجاعة الفتاة ، ووجدت من نفسي قدرة على مساعدتها على تيسير عمل لها ، ففعلت . والتحقت الفتاة بمستشفى قصر العيني وصارت تسعى لرعاية أولادها الصغار ليكبروا ، وليصيروا كأبيهم عمالاً في مصانع الجيوش المحاربة في الحرب المقبلة ، ثم في فترة عملهم ورواجهم . يتزوجون وينسلون ، ثم يعودون بعد انتهاء الحرب الى حياة التبطل والتسكع لا يهتم بأمرهم أحد ولا مجتمع ولا حكومة .

ذكرت هذه القصة الأليمة حين رأيتهم ، ورأيته فيهم ، يجلسون في شمس الشتاء الدافئة أمام مقهى المعلم صبيحه ، يترشفون القهوة ، ويدخنون الطباق في القصبة الطويلة ويسعلون ويبصقون على الأرض ، وقد اطمأنت نفوسهم ، وخفت حدة الكبرياء التي كانت علاهم وقلّ التحدي الذي كانت ترسله نظراتهم للناس في ازدراء واحتقار ، واتجهت أبصارهم الى تراب الأرض وكانت لا ترضى السماء متجهاً لها . تماماً .. تماماً كما كنت أراهم قديماً .. قبل الحرب .

محمد طلبه رزق

جريمة أم قصاص

هذه قصة للكاتب القصصي الشهير جوزيف كونراد وهو بولوني الاصل انجليزي الثقافة ويعد من كبار القصصيين الانجليز . ويريد أن يظهر في هذه القصة كيف أن سوء الظن اذا استشرى واستفحل قد يتملك ضمير المرء حتى يحكم بالظن من غير دليل ثم يعاقب بالظن .

كان (س) ربّان سفينةٍ حربيةٍ وكان طويل القامة وقوراً جادًّا صريحاً يكره النفاق والغش، وقد انتهز فرصة إجازة قصيرة فزار حبيبته وجعل يبثها حبّه . وكانت مستلقية على مقعد وهو راكع بجانبها وقد أسلمت إليه يدها فجعل يقبلها وكأنما منعها التعب من تحريكها. ولأمرٍ ما اضطربت أحاسيسها واختلطت في صدرها حتى اهتزّ من تنفسها أنفاساً عميقة . ولكنها قالت بصوتٍ يكاد لا يختلف عن صوتها المألوف — قصّ عليّ قصة — وقد أخفى الظلام دهشة جليسها وابتسامته إذا ذكّرته نفسه إنه حدّثها قبل قولها هذا حديث حبه وهو أغلى ما يحدّث به رجل امرأة ولم يحدثها به لأول مرة فقال — قصة ؟ — « نعم لِمَ لا ؟ » قالت ذلك بلهجة دلال امتعاض المرأة التي ترى أن رغبتها نافذة كشريعة القانون ومن الصعب تجنبها أو اغفالها . فردّد قولها لِمَ لا ؟ بلهجة الساخر ، وكان متغاضباً من خروجها من حديث الحب بسهولة كما تخلع المرأة ثوباً أنيقاً . قالت وكان صوتها يهتز في نبراته اهتزاز جناح الفراشة في الضوء « إنك قبل هذه الحرب كنت تقص قصصك وأحاديثك الشائقة . فأين هي ولِمَ تَغَيَّرْتَ ؟ » قال — ولكن العالم الآن يقاسي ويلات الحرب والحرب تغير أحوال النفوس — قالت قصّ إذاً قصة عالم آخر — قال إذا كنت تعنين عالم الآخرة فلا يستطيع أن يقص عليك قصته إلاّ من رحل إلى ذلك العالم ثم عاد منه — قالت — لا أعني الآخرة وإنما أعني عالماً آخر في هذا الوجود — قال سأعود بعد قليل من اجازتي إلى عملي وواجبي — كأنه بهذا القول يعاتبها لقطع حديث الحب . قالت دعنا من ذكر

الواجب فإنه قد يكون في هذه الأيام أمراً شنيعاً مادامت الحرب قائمة — قال إنكِ تقولين ذلك إذ تظنين أن الواجب أمرٌ محدود. كلا، إنَّ في الواجب ما لا حدَّ له من الغفران ... ألا ترين ذلك ؟؟ قال هذا القول وهو ينظر إليها بحدَّة مدققاً النظر — ثم صمت قليلاً وعاد فقال سأحدثك بقصة ربّان سفينة حربية فهي قصة من قصص عالم البحار وهي قصة حياة وموت — قالت كما في هذا العالم ؟ قال ماذا تتوقعين عند ما يرسل إنسان من طينة هذا الخلق المعذب كي يبحث ؟ وماذا كان يجد غير ذلك عند ما يبحث ؟ وكيف تستطيعين أن تفهمي ؟ قال ذلك وكان يعالج حرارة الألم . ولكنها قالت — هل هي قصة فكاهة ؟ قال ستكون قصة نفسي وربما كانت قصة فكاهة ولكنها فكاهة قاسية مؤلمة بالرغم من أن مدافع السفينة الحربية لم تطلق بل ظلت صامتة كالمنظار المكبر . ولا يغيبنّ عنك إنها قصة عالم مضحك في هزله وجدّه وفي سلمه وحربه . وكانت الحرب قائمة فوق الأرض وتحتها وعلى البحار وتحت البحار وفي الهواء . فهو عالمٌ غير حكيم . إلاّ أن بعض الكياسة لم يَخلُ منها جماعة من التجار في الأمم المحايدة . وكان لا بدّ من مراقبتهم مراقبة دقيقة فأرسلت الحكومة ربان السفينة الحربية لمراقبتهم حين شاع ان بعضهم يأتي بخزانات طافية ملؤها الوقود السائل في بقاع معينة كي تلتقطها غواصات الأعداء وتتمكن بهذه الوسيلة من البقاء بعيدة عن قواعدها ومن اغراق سفننا الحربية والتجارية بمن فيها من محاربين أو مدنيين من رجال ونساء وأطفال . ومما كان يدهش له ربان السفينة الحربية ان سطح البحر قلما كان يتغير عن حالاته في وقت السلم . فكان من الصعب أن يعتقد الرائي أن في قاع البحر كميناً مخبأً معدًّا لهلاكه حتى يرى سفينة تصاب أمامه وتغرق قبل أن تعرف ما حدث لها . ثم ينطوي عليها سطح البحر كأنْ لم يحدث شيء . عندئذٍ يوقن انه سيهلك يوماً ما كما هلك أهل تلك السفينة وسيغرق كما غرقوا وربما كان ذلك مبالغة وهو آمن . وعندما يوقن بذلك ربما يحسد جنود البر إذ يمسحون العرق والدم من وجوههم عند نهاية المعركة ويرون أشلاء الذين هلكوا ويرون الأرض الممزقة كأنها تتألم وتدمى — نعم إنها وحشية ولكنها وحشية صريحة . أما البحر فانه يدعي أن الدنيا بخير وهي ليست بخير — إذ أنه يطوي في أعماقه آثار الجرائم التي تجترم على سطحه . قالت « آه ... اني أعرف انك موهوم

بالصراحة وصدق السريرة والغضب للحق ... ان الغضب للحق عقيدتك » فنظر إليها بقلق وقال « أليست هي عقيدتك أنتِ أيضاً ؟ ألسنا شريكين ؟ » ثم عاد الى قصته فقال ان الليل صريح في اخفائه للاشياء في عرض البحار وكأن الليل نفاق صديق قديم قد عرفت نفاقه وألفته واسترحت إليه، أما الضباب فانه يخفي ولا يريح ويغش وكأنه لا يغش . ففي يوم من أيام الضباب كانت السفينة الحربية تسير قرب شاطىء صخري كثير الاخطار بسبب الصخور التي تغمرها المياه واذا خفّ الضباب لاح الساحل كأنما رسم بالحبر الأسود على ورق رمادي اللون — قال مساعد الربان الحربي اني أرى شيئاً طافياً على سطح الماء . وعندما اقتربت السفينة منه رأوا أنه برميل أو خزان وربما كان من تلك الخزانات الطافية التي يلقيها بعض التجار الجشعين المحايدين كي تلتقطها غواصات الأعداء فتأخذ ما بها من الوقود السائل . هكذا شاع الخبر وان لم يقم على صحته دليل إلاّ اذا كان ما رآه ربان السفينة الحربية ومساعده دليلاً . قال يحدث نفسه ولكن لماذا لم تلتقط السفينة التجارية الخزان بعد تفريغه . فأجابته نفسه قائلة لعلّ ربانها رأى ضرورة في الاختفاء قبل التمكن من التقاطه . فبدأ الظن يتحول يقيناً في نفسه وشعر باشمئزاز من خيانة بعض المحايدين وغدرهم . فقالت حبيبته الذي يحدثها اني أستطيع أن أفهم اشمئزازك . قال نعم فان الغش والخيانة لا يجوزان في الحب والحرب لأن الحب والحرب داعيان يدعوان النفس الى المُثُلِ العليا ، ومن الجائز أن يسفلا عنها بدعوى ضرورة النصر فيهما — قال واستمرت السفينة في مسيرها فازدادت كثافة الضباب وانقطعت الأصوات أو خفتت لأن الضباب يجعل الأصوات تتضاءل أو تنقطع ولم يستطع إنسان في السفينة الحربية رؤية إنسان آخر . وكان صوت وقع أقدام الملاحين كأنه وقع أقدام أرواح وأشباح . وكان الرُّبان الحربي قد درس هذا الشاطىء وعرف أنّ أمامه خليجاً فرأى أن يرسو بسفينته في ذلك الخليج حتى ينجلي الضباب وعندما استقرت السفينة في الخليج كان الضباب كثيفاً حتى أنه منع الأعين من رؤية الشاطىء إلاّ أن صوت الأمواج وهي تصدم ذلك الشاطىء كان يصل إلى السفينة الحربية كأنه من عالم آخر غريب على قربه منها . وبعد قليل خف الضباب من ناحية مدخل الخليج فهمس مساعده في أذنه قائلاً إني أرى سفينة قرب مدخل الخليج ، فدقق الرُّبان النظر فرآها وقال من غرائب حسن الحظ أن سفينتنا لم تصطدم بها أثناء دخولنا . وكان يظنها في بدء الأمر من السفن

التي تتاجر بنقل البضائع من ثغر إلى ثغر على ذلك الساحل، إلاَّ أن شكًّا بدأ يتردد في ذهنه وفي ذهن الضابط المساعد الذي قال اننا دخلنا الخليج من غير ضجة ولكن ربانها لا بدَّ أن يكون قد أحسَّ بدخولنا ومع ذلك فانه لم ينذرنا بوجوده كي نتخذ الحذر لمنع الاصطدام. وكأنه هو ورجاله كانوا صامتين من الخوف ، قال الربان الحربي نعم يخيل لي أنَّ الأمر كما تقول وزاد شكه في أمر السفينة التجارية فأرسل اليها ضابطاً ينظر في أمرها ويمنعها من الخروج فذهب الضابط ثم عاد وسأله رئيسه قائلاً هل هي من سفن هذا الساحل ؟ . قال لا يا سيدي إنها سفينة غريبة ضلَّ صاحبها الطريق بسبب الضباب واختلال آلاتها فلجأت الى هذا الخليج خشية أن تهشم على الصخور في أثناء سيرها. وقد أصلح رجالها آلاتها وهي مهيأة مستعدة للسير ، لكن ربانها لا يجرأ على الرحيل إذ أنه يجهل الاتجاه الذي ينبغي أن يتجه إليه في سير السفينة فالتفت رئيسه الى مساعده وقال لقد كنت مصيباً إذ قلت أن رجالها كانوا صامتين من الخوف كي لا نعرف وجودهم . لكن مساعده بدأ يشك في شكه فقال إنَّ الضباب يا سيدي يحجب الأصوات ويطمسها حتى الأصوات التي في سفينتنا نكاد لا نسمعها . ولعلَّ الضباب الذي منعنا من رؤية السفينة التجارية في أثناء دخولنا منع ربانها من رؤية سفينتنا. ثم ما ذا كان مراده من إخفاء وجوده ؟ قال رئيسه كي يهرب فلا ننظر في أمره . قال المساعد ولماذا لم يفعل ؟. لماذا لم يهرب إنه لو حرَّك سفينته ربما سمعنا صوتاً خافتاً في الضباب ولكن الضباب كان يحجب السفينة في طرفة عين فلا نعرف أين ذهبت. وعاد الضابط الذي نظر في أمرها لإتمام حديثه . فقال إنَّ أوراقها مستوفاة لا عيب فيها وبضائعها ليست من البضائع المحرَّمة في الحرب وهي ذاهبة إلى ثغر إنجليزي ولم أجد فيها مدعاة لسوء الظن ورجالها ليس عليهم مظهر ريبة وربانها من أهل شمال أوربا. والظاهر إنه كان قد احتسى خمراً وبدأ يفيق من خمارها وقد أخبرته أني لا آذن له بالرحيل . فقال إنه لا يجرأ على أن يحرك سفينته من مكانها في هذا الضباب سواء أذنت له بالرحيل أم لم آذن — ولكن رئيسه لم يستطع قهر شكه وقال أليس من الجائز أن تكون هذه السفينة هي السفينة التي تموّن غواصات الأعداء بالوقود السائل في خزانات طافية كالخزان الذي رأيناه . قال مساعده إنك لا تستطيع إثبات ذلك يا سيدي ، والظاهر من تقرير الضابط الذي نظر في

أمرها إنه لا توجد مدعاة للريبة. قال الرُّبان الحربي سأذهب اليها وأستطلع أمرها بنفسي. وحب الاستطلاع هو مدعاة الكره أو الحب، فما الذي كان يأمل أن يجد فيها؟ انه كان يلتمس الشبهات ويأمل أن يجد فيها ما يسوغ شكه حتى يصير دليلاً. ولعله كان يأمل أن يرى أو يشم أو يذوق دلائل الغدر والخيانة أو ان يوحى اليه فيها إيحاء يحوّل شكه الى يقين فيستطيع أن يعمل عملاً حاسماً وأن يوقع قصاصاً صارماً عادلاً. ذهب الربان الحربي الى السفينة التجارية فقابله صاحبها. وكان رجلاً ضخم الجسم كثّ اللحية وكان واضعاً يديه في ثيابه كأنما كان يخشى أن يقبض عليهما أحد، أو هكذا خيّل للقائد الحربي فان الشك إذا ساور النفس اتخذت له من كل أمر دليلاً وإن كان ليس بدليل. وكان صاحب السفينة التجارية يتمايل في مشيته فهل كان تمايله من الخوف إذ أن خيانة المحايد بتموينه غواصات الأعداء عقابها الموت؟. أم كان تمايله من بقايا أثر الخمر التي ظهرت رائحتها لمن قاربه؟!. وفتح باب حجرته وأسند ظهره إلى جدار الحجرة قليلاً كأن به دواراً من الخوف أو هكذا خيّل للقائد الحربي ولكنه ما لبث أن تبعه الى داخل الحجرة وأنار المصباح الكهربائي ثم أعاد يديه بسرعة إلى ثيابه كأنما خشي أن يقبض عليهما عدوٌّ وألقى بنفسه على مقعد قائلاً «ها أنا ذا» ولاح عليه كأنما أدهشه صوته أو هكذا خيل للرُّبان الحربي الذي كان ينظر اليه كأنما يريد بنظراته أن يصل الى أعماق نفسه فيعرف أسرارها. ثم قال صاحب السفينة أريد أن أقول لك يا سيدي أني لا أعرف أين أنا فقد لزمنا الضباب أسبوعاً وكُسِرَ جهاز السفينة وكان يتكلم بسرعة كأنما يريد أن يقنع الرُّبان الحربي بالرغم منه أو هكذا خُيّل للرُّبان الحربي، ومع ذلك فقد كان في حديثه فترات سكوت قصيرة كل فترة هي بضع ثوان. وقد خُيّل للرُّبان الحربي أن تلك الفترات من فترات السكوت كانت من خشية الزلل في قص قصة ملفقة ولو أنه لم يلح على وجه صاحب السفينة شيء من هذا الشعور وخُيّل الرُّبان الحربي أن القصة مرتبة ترتيباً قلما يبلغه صدق الحديث: ولكن ربما كان هذا الظن من شكه الذي لم يستطع مغالبته، بل كان في أثناء حديث صاحب السفينة يحدث نفسه حديثاً آخر عن جشع بعض المحايدين وتموينهم غواصات الأعداء فكأنهم هم الذين أغرقوا ضحاياها. حدّث نفسه هذا الحديث كي لا يقتنع وكي لا يخدعه حديث صاحب السفينة

وكي يشعل نار البغض في قلبه . قال صاحب السفينة إن هذا الضباب يملأ النفس قلقا
فاني لا أكسب إلاّ الكفاف من رزق أسرتي وأشار الى صورهم المعلقة على الجدار .

قال القائد الحربي : ولكن هذه الحرب ستغنيك وتغني أسرتك . قال صاحب
السفينة إذا لم تتهشم السفينة وأخسرها . ولكن لماذا تغضب ياسيدي إذا درّت الحرب
على التجار أرباحاً . إننا لم نشعل نار الحرب ولو قعدنا وامتنعنا عن العمل للكسب ما انتفع
العالم . قال الرُّبان الحربي لقد أوضحت لي كيف صرت الى هذا المكان ووصلت الى هذ
الساحل ودفتر سجل سير السفينة يؤيد ما تقول . ولكن من المستطاع تلفيق هذا السجلّ
فأطرق صاحب السفينة ثم رفع رأسه بعد قليل ونظر الى الرُّبان الحربي قائلاً ولكن هل
تسيء بي الظن ؟ لأي أمر يا سيدي ؟ وبماذا تتهمني ؟ ان بضائع سفينتي لثغر انجليزي
قال ذلك بصوت خيل للربان الحربي أنه متغير من الخوف كأن به بحة من القلق ولكن الربا
الحربي كان يسائل نفسه لماذا لم ينذرنا بوجوده عندما دخلت سفينتنا الخليج . ولماذا كا
جهاز سفينته مهيئاً للسير ؟ أليس ذلك دليلاً على أنه هو الذي يموّن غواصات الأعداء ؟ ث
خرج الربان الحربي واستعرض الملاحين وسألهم أسئلة فلم يستطع من اجابتهم أن يثبت كذب
صاحب السفينة . فقال لا شك إنه وعدهم أجراً كبيراً ومكافأة خاصةً ثم هم لا يخشون م
شيئاً ما داموا لا يبوحون بشيء . لم يظفر الربان الحربي بأي دليل يثبت سوء ظنه ويسو
شكه، ولكنه رأى أنه يحدث نفسه كأن أمر غدر هذا التاجر المحايد وخيانته لقانون الحيا
أمرٌ ثابت لا شك فيه . وعاد الى الحجرة فتلقاه صاحب السفينة وعلى وجهه دهشة فنظر ال
الربان الحربي وقال : يخيل لي ان دهشته مصطنعة مبالغ فيها فهي ليست دهشة طبيعية بل ه
يتكلف الدهشة كي يقيم الدليل على براءته . فشعر باشمئزاز من غدر الناس ونفاقهم وقال
نفسه : لا شك ان كل الناس من آكلي اللحوم البشرية . أليس المال الذي يكسبه التاجر م
تموين الغواصات ويشتري به قوته وهو من لحم الضحايا الذين تغرقهم تلك الغواصات ؟. فكأ
يأكل من لحم الضحايا . ثم نظر إلى التاجر صاحب السفينة التجارية وقال له ممتحناً ومختبراً
ترَ شيئاً طافياً على وجه الماء ؟. قال التاجر: قلت لك يا سيدي ان الضباب كان يلازمنا فلم نستط
أن نرى شيئاً. قال الربان الحربي ولكننا استطعنا ان نرى خزاناً من وقود سائل طافياً على و

الماء وكان الضباب يخف في بعض الأحايين ، ثم أخبره بما استنتجه من تموين بعض التجار المحايدين لغواصات الأعداء. فوقف صاحب السفينة كأنه قد صعق وألفى صعوبة في التنفس ثم تكلف ابتسامة حائرة مرتبكة لا معنى لها . فاتخذها الربان الحربي دليلاً آخر على انه مجرم . وقال ان المحايدين الذين يرتكبون هذا الجرم خليقون بعقوبة أشد من عقوبة الشنق .

فقال صاحب السفينة وهو متعجل في قوله نعم. نعم . نعم . ثم فكر قليلاً وقال ربما . ربما .

قال الربان الحربي وهو محنق مغيظ ربما انهم خليقون بعقوبة أشد من الشنق .

قال صاحب السفينة بهدوء نعم ولكن المغري لهم أولى بالعقاب يا سيدي . المغري الذي يأتي بصرة ملؤها الذهب الى رجل فقير لا يجد قوت عياله إلا بشق النفس فيفكر في تعاسة ذويه وفي الذهب الذي أمامه وأنا لا أذكر هذا عن نفسي فانك قد لا تدرك ياسيدي اني على ضخامة جسمي ليست لي الأعصاب السليمة القوية التي تدفع بي الى المغامرة فأكتفي بالرزق القليل المكفول اذ لا أستطيع المخاطرة ؟ ولكن الرجل الفقير الذي يستطيع المخاطرة لا يتخيل ما يحل بركاب السفن التي تغرقها الغواصات لأنها مناظر لا يشهدها ، فهو لا يرى الا الذهب وشقاء أسرته التي يسعى لكسب قوتها فيرضى أن يموّن الغواصات بالوقود السائل خلسة ويوهم نفسه انه لم يشترك في اغراق أناس . ولا أعني نفسي يا سيدي. فأنا رجل لا قدرة له على المغامرة ولو غامرت مثل هـذه المغامرة لأصابني الجنون من القلق وخوف العاقبة أو لحاولت إغراق قلقي باحتساء الخمر ليلاً ونهاراً . فمن أية ناحية نظرت الى هذه المغامرة أرى الوبال والخراب

قال الرُبان الحربي وقد اقترب وجهه من وجهه بل الموت لا الخراب وحده !

قال صاحب السفينة هذه مسألة لا تهمني ياسيدي

قال الربان الحربي ومع ذلك فلا بد أن ترحل من هنا الآن — قال صاحب السفينة : في هذا الضباب ؟ قال نعم . لا بد أن ترحل في هذا الضباب الآن ، قال صاحب السفينة : ولكني لا أعرف أين أنا ولا أدري كيف أقود السفينة في إتجاه ينجيها من الصخور

المغمورة . قال الربان الحربي ساخراً : آه انك لا تدري ؟ إذاً سأدلك على الاتجاه الذي تسلكه بسفينتك — ثم ذكر له إتجاهاً باصطلاح السفن في البحار فتردد صاحب السفينة وقال أمن الحتم أن أرحل في هذا الضباب ؟ . قال الربان الحربي نعم من الحتم وإلاّ ... وإلاّ فقال صاحب السفينة لا داعي للتهديد يا سيدي — سأرحل كما تريد... ثم رحل بسفينته .

والتفت الربان الحربي الى حبيبته التي كان يحدثها حديث القصة واقترب منها قائلاً : أتعرفين إلى أي شيء كان يؤدي ذلك الاتجاه الذي دله عليه الربان الحربي ؟ انه كان يؤدي الى صخور مغمورة لا تنجو منها سفينة ترتطم بها وقد اصطدمت بها السفينة وغرقت وغرق كل من كان بها . وهذا دليل على أن ربانها لم يكن كاذباً في قوله انه يجهل أين هو فانه لو كان يعرف ، ما سار في الاتجاه الذي دله عليه الربان الحربي . نعم لقد كان صادقاً ولكن صدقه لا يدل على براءته — قال الربان الحربي ذلك بقلق وهو يحاول أن يقنع نفسه أن لا داعي للقلق

* * *

ثم ترك الربان الحربي دعوى نسبة حادث القصة الى رجل آخر وقال نعم أنا الذي وجهته الى تلك الصخور المغمورة وكنت أظن أن ذلك امتحاناً له واختباراً اختبر به صدق نفسه وبراءته . ولكني الآن لا أدري أكان ذلك اختباراً صحيحاً أم أني دفعته هو ومن معه الى الهلاك بالتهديد . وعندما أفكر في احتمال براءتهم يخيل لي أني أرى جثثهم في قاع البحر تأكل منها الأسماك . نعم لا أدري أكنت قاضياً وقع جزاء عادلاً صارماً ، أم كنت أثيماً ارتكب جرماً كبيراً ؟ .

فمدّت حبيبته يدها الى ذراعه وقالت . . . مسكين . . . مسكين يالتعاستك أيها المسكين !

فسحب الربان الحربي ذراعه وقبّل يد حبيبته منصرفاً — وقال لا أدري أكنت قاضياً أم مجرماً ؟ . لا أدري ولن أدري . وسأعيش ما عشت في هذه الحيرة .

— منقولة عن الانجليزية بتصرف قليل — ع . ش

الوضع الاجتماعي

والعوامل المؤثرة فيه

« كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن . إلى المكان الذي جرت منه الأنهار ، إلى هناك تذهب راجعة » .

الشرق ، اليوم ، هو ذلك البحر الذي تصب فيه أنهار الثقافات من جميع أنحاء الدنيا . هو كالبحر في سعته وعمقه ، لكنه الآن ، ليس كالبحر في طبيعته . من البحر تتصاعد الأبخرة ، فتنعقد غماماً ، فتتساقط قطرات تكر جميعها راجعة إلى البحر ، ما جرى منها على سطح الثرى ، وما تغلغل في باطنه . الشرق صابر يرمق هذه المياه المتدفقة ، وينصت بلذة إلى هديرها ، ويستوعب برضى وغبطة ما تأتي به من خير وشر . هو اليوم في دور الاستعطاء والاقتباس . ولا بدّ من أن يأتي يوم يعيد فيه سيرته الأولى . فمنذ البدء ، ومن هذا الشاطىء ، سارت مع الموج أول فكرة عن الله ، وشعّ نورها في أرجاء المسكونة ، وأرشدت الناس إلى السماء وإلى الملكوت وما فتئت الانسانية منذ ذلك اليوم تتغذى بالزاد الذي انبثق عن هذا الشرق وتتأثر به في جميع ألوان نشاطها . ويقيني ان طور النبوءات التي ترسو قواعدها على الخيال الجامح والايمان المطلق الكفيف قد مضى ، وأن الانسانية في سيرها الطويل تدنو من العقل المقنع بالخيال ، المضمخ بالايمان ، وتبتعد رويداً رويداً عن الخيال المطلق الصرف . وإن هذا البعد سيزداد وذلك الدنو سيتعاظم . وإنها سوف لا تسير إلاّ في أثر نبي يمثل الحضارات والفلسفات والديانات وسبر أغوار الانسانية ، واهتم بتنظيم أحوالها وعلاقاتها الدنيوية التي تمهد لها السبيل للآخرة ، وأقام الدليل على تفهمه لازدواج الانسان . إن الديانات القديمة قد بالغت في الدعوة إلى الآخرة وأمعنت في اغفال المشكلات الرئيسية المعقدة التي تواجهها البشرية في مراحل وجودها . لسنا بحاجة الى من يشذب غرائز العيش فينا التي تكيفها الاختبارات وتنقيها الآلام ، بل إننا ننشد في أعماقنا نوراً يتعدى عتمة الجسد وينفذ إلى أقداس الانسان ، إلى الأسلاك الخفية التي تربطه بالألوهية الشاملة .

إن فكرة الإلَه ، المنبثقة عن الشرق ، قد فرضت أولاً على العالم فرضاً . ثم ما لبثت أن أصبحت هذه العقيدة أقدس ما في الوجود وأخلده على الاطلاق . وقد ظلت عبقرية

الغرب ، طيلة الأجيال التي تصرّمت على البشرية ، عاجزة عن ولادة فكرة جامعة انسانية تضاهي في سموها وقداستها وشمولها الرسالات الروحية التي جاءت على ألسنة أنبياء الشرق . ولأول مرة ، بعد هذا العقم الطويل ، تمخض العقل الغربي عن أول « رسالة » . إنها لا تتمم ما فات من الرسالات الأولى ، بل إنها تنسف وتنقض كل ما جاءت به تلك الرسالات . إن الغاية التي توخاها الانبياء والرسل ، ودأبوا على تحقيقها ، هي أن يرفعوا الإنسان من الأرض الى السماء ، من الشر الى الخير ، من الخطيئة إلى الطهارة ، من مخالب الشيطان إلى حضرة الرحمن . أما « رسالة » كارل ماركس ، في تصوره المادّي للتاريخ ، فانها تهبط بالإنسان من السماء الى الأرض ، وتنتزعه من أحضان الألوهية لتلقي به في أتون الطبائع البشرية المطلقة من كل قيد ، ولتجعله رهن مشيئة الأساليب الإقتصادية السائدة .

وكما أنّ الفكرة الدينية قد تعهدتها مؤسسات ، تولت التبشير بها ، حيناً بالقلم واللسان ، وأحياناً باليد ، واعتبرت أمراً واقعاً مقدّساً في عرف الجماعة ، وهكذا ، فإن المادية التاريخية تولت التبشير بها أحزاب منظمة تنظيماً آلياً ، واقتلعت العقيدة الدينية الأصيلة في أصقاع كثيرة وحلّت محلها ، وكما أنّ مبدأ الألوهية قد تجسّد في اليهودية والمسيحية والإسلام ، كذلك المادّية التاريخية التي قال بها ماركس قد تركزت في الدول والأحزاب الشيوعية . فنشأ عن ذلك أن الانسان في هذا العصر أصبح واقفاً على مفترق الطرق ، وهذه الطرق مشتبهة غير متشابهة . وقد ارتطمت المفهومات الدينية التي اقتبسها عن أنبيائه ورسله بمفهومات وتفسيرات مادّية جديدة للكون والحياة والانسان ، تفرضها بعض الدول على الشعب فرضاً ، وتتحدّى العقائد والنظريات .

وقبل كل شيء تصطدم المادّية التاريخية بالمعتقد الديني وتنافي جوهر الدين وما يتفرّع عنه منافاة تامّة . فالعقيدة الدينية تقول : في البدء كانت الكلمة : وأن الشعور الديني شامل ، متأصل في أعماق الانسان ، غريزي ، وما انفكّ منذ الأزل وهو يعزو الوجود وما فيه الى قدرة تسمو على الشمول والإحاطة والإدراك الإنساني . ولم يتورّع البعض عن القول إن الإنسان حيوان متدين . أما الشيوعية الماركسية فتؤمن بالعقيدة القائلة : في البدء كانت المادّة . وبينما نرى الكتب المقدسة تقرر أن الله قد خلق الإنسان ، يجعل التصوّر المادّي للتاريخ الانسان خالقاً لله ولفكرة الألوهية . ويتوقع الشيوعيون في السياق الطويل نضوب النزعة الدينية ونموّ الفكرة الإلحادية . ولا تأملن أن يكون هذا النضوب ثمرة للنزاع الطبقي تلقاء المؤسسات الدينية والفكرة الدينية ، أو انتشار الثقافة وتبلورها في الذهن ، بل نتيجة للتحرر من العوز . لأن النزعة الدينية حسب التعليل الذي أوجدته المادّية التاريخية

للدين، ما استقرت في النفوس وتمكنت أصولها في القلوب ، والتفت كالأفعى حول البشرية، إلا في زمن موغل في القدم ، كان الانسان فيه خاضعاً لقوى لا طاقة له على كفاحها ومصارعتها . وفي تلك الحالات التي تخور فيها عزيمة الانسان من جراء الجوع والجهل ، يأخذ يتعلل ويلهو بالدين ويمارس الصلاة ويتخيل آخرة تعوّض عليه ما فاته من الحظ في الدنيا، بغية أن ينسى آلامه الحاضرة فتمكنت الخرافة من استعباده والسيطرة عليه وتسييره وفق هواها ، بدلاً من أن ينبذها ويتحرر منها . وينبغي على الدولة ، في مثل هذه الحال، وهي أقوى وأكبر مؤسسة سياسية ، أن تقود الحملة التحريرية من ربقة الكوابيس الوهمية.

وقد جاء في المادة ١٢٤ من الدستور السوفياتي الصادرر في ٥ دسمبر ١٩٣٦ ما يأتي :

« ولكي نضمن للمواطنين حرية الضمير ، أصبحت الكنيسة في الاتحاد «السوفياتي» والمدرسة منفصلة عن الدولة، وللمواطنين حرية ممارسة العقائد الدينية وحرية الدعوة ضد الدين ».

وبتنا في هذه الأيام نسمع من يقول أن الشيوعية تشبه المسيحية من وجوه كثيرة وإنها لا تناقض مطلقاً الصورة التي أرادها يسوع للمجتمع البشري . ومن يتدبر هذا القول الذي أريد به باطل ، بروية ودرس وتمحيص ، يدرك أن الجمع بين المذهبين مستحيل . فإنَّ الشيوعية تؤمن أن الإنسان لم يتطوّر من حال إلى حال إلا بتأثير المادة فقط . فهي التي تنشىء وتنمي وتعين وجدانه وخياله واتجاهاته الفكرية . أما المسيحية ككلّ الرسالات السماوية شقيقاتها ، ترسو اصولها على الإيمان بالله والآخرة والدينونة والاعتراف بالملكية والخير والمحبة . وما من قوة تستطيع أن تؤثر بالانسان وتخلقه خلقاً جديداً إلا ملكوت السموات ، « يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة « أكيال دقيق حتى اختمر الجميع . » وان يسوع لم يناد بثورة تقلب نظم الاجتماع والاقتصاد والسياسة . إنه حث الفرد أن يثور على نفسه لا على غيره ، وان يكافح ما يكمن فيه من مفاسد وشرور ، لا أن يخاصم جاره أو أياً كان من الناس . ذلك يقيناً منه ان الاصلاح لا يأتى من الخارج بل ينبع من الداخل ، من أعماق الشخصية ، من ذلك الكهف الذاتي «وأما أنا فأقول لكم ان كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه . اجعلوا الشجرة جيدة وثمرها جيداً ، أقول لكم ان كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين . أيها الفريسي الأعمى نقِّ أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضاً نقياً » . إنه لم يحرض الفقراء على الأغنياء ولم ينغمس بالنزاع الناشب بين هاتين الطبقتين دائماً وأبداً ، لا ممالأة أو رهبة منه للطبقة الغنية ، ولا استهتاراً أو مقتاً للطبقة الفقيرة ، بل لأن هذا النزاع العنيف لا ينبثق عنه صلاح وخير بل فساد وشرّ .

إنه لم يتورّع عن التنديد الشديد بالأغنياء فيقول : « ويلٌ لكم أيها الأغنياء . ويلٌ لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون » ، ويلتفت إلى الفقراء قائلاً « طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون . طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله » . إن التلويح بالآخرة لا بدّ من أن يحدث صدًى بعيداً في تلك النفوس القاتمة المظلمة التي انكمشت على الضلال إذ انكمشت على الفلس ، وضمت جوانحها على الحقد والبغضاء إذ أبت أن تنفتح على المحبة والعطاء ، وغلّت يدها إلى العنف فلم تستمرىء اللذة المنبثقة عن البذل والسخاء . ان الكلمات الوديعة التي تفوّه بها يسوع ، الصادرة عن نفس مطمئنة مؤمنة لن تنسجم مع تلك الحشرجة الشيوعية الصادرة من صدور مفعمة بالأحقاد والضغائن والبغض . « ان الشيوعيين يصرحون علانية أن نواياهم لا يمكن أن تتحقق إلاّ إذا مني النظام الاجتماعي التقليدي بانقلاب عنيف » . وبينما نرى يسوع يقول لأحد الذين معه : « رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون » . نسمع الجماعات الشيوعية تصرخ بلسان جورج ساند : « الكفاح أو الموت . الصراع الدامي أو العدم » . وتنشر إحدى الجرائد الماركسية الثورية هذا النداء الذي يدعو إلى ثورة لاتبقي ولا تذر ، ولا تقع فيه على أثر للرحمة أو الانسانية . «هيا اذبحوا ! ليكن الانتقام فظيعاً» هكذا يجب أن تكون لازمة الأناشيد الثورية ، وهكذا سيكون الصوت الذي سوف تطلقه اللجنة التنفيذية بعد انتصار طبقة العمال . « ففي الأوقات العصيبة يتحتم على كل ثوروي مؤمن أن يضع دائماً نصب عينيه هذا المصير : اما أن يتوصل للقضاء على أكبر عدد ممكن من أعدائه ، أو يتأهب للقضاء على نفسه » . وجاء في جريدة أخرى : « ان هذا الجمهور . . . يفهم جيداً أن من مصلحته أن يذبح المالك ويحرق الأكواخ الموبوءة ، ويستولي على القصور الجميلة التي شادها بنفسه ، ويحطم الصناديق الحديدية ، ويقلب كل سلطة : فيشنق الملك والوزراء والشيوخ والنواب والمحامين وضباط البوليس وكل أذنابهم . ان هذا الجمهور الحقير سوف لا يصبح أكثرية إلاّ في يوم الثورة بالذات » .

ما هي القوى التي تكيف المجتمعات البشرية وما هي المؤثرات التي تحدد وتعين الوضع الاجتماعي ؟ على هذا السؤال يجيب كارل ماركس ، ومن خلال جوابه تتبدى نظريته القائمة على التفسير المادي للتاريخ : « ان الناس في انتاجهم الاجتماعي خلال وجودهم ، تنشب بينهم علاقات محدودة ضرورية خارجة عن ارادتهم . وان العلاقات الناجمة عن الانتاج تتناسب مع درجة التطور الذي بلغته قوى الانتاج المادية . ومجموع هذه العلاقات الناشئة عن الانتاج تكون بنية المجتمع الاقتصادية ، وهي الأساس الذي يقوم عليه بناء حقوقي وسياسي ويتصل بأشكال معينة من الوجدانات الاجتماعية . إن أسلوب الانتاج في الحياة المادية يطبع

مظاهر الحياة الاجتماعية والحقوقية والفكرية على وجه العموم . وليس وجدان الناس هو الذي يحدد كيانهم ، بل على العكس ، فان كيانهم الاجتماعي هو الذي يحدد وجدانهم » .

وجاء في « البيان الشيوعي » على لسان ماركس وانجلز : « أنحتاج إلى ذكاء حاد وعميق لنفهم ان أفكار الناس ونظراتهم الواقعية ، وكذلك مبادئهم التي تتعلق بالماهيات ، وبكلمة وجدانهم ، تتحور جميعها تبعاً لظروف وجودهم وعلاقاتهم الاجتماعية ويتكلمون عن الافكار التي تثير المجتمع بكامله ، وهم في ذلك لا يقررون إلاّ واقعاً وهو ان العناصر التي يتكوّن منها كل مجتمع جديد ، قد تكونت في المجتمع القديم ، وان انحلال الأفكار القديمة يسير جنباً إلى جنب مع انحلال ظروف المعيشة القديمة » .

ولكي تتحقق آمال ماركس وانجلز وتصدق نظريتهما ينبغي أن تنشب ثورة عنيفة يتم فيها النصر للطبقة العاملة التي تأخذ على عاتقها نسف المجتمع البشري التقليدي وازالة رأس المال وكل أساليب الانتاج القديمة التي اعتمدتها البشرية في الزمن القديم .

هذه هي زبدة النظرية التي قال عنها انجلز نفسه : « ان ناموس المادية التاريخية الذي اهتدى إليه كارل ماركس ، يضاهي ناموس الجاذبية الذي توصل نيوتن للكشف عنه » . ويقول لابريولا : « ان الشيوعية تستطيع أن تتنبأ عن المستقبل » .

يبدو لنا من فحوى هذه الأقوال ان الشطط الذي تنطوي عليه يطغي على الصواب ، وان المغالاة تفوق حد الاعتدال وذلك راجع لسببين : أما الاول فهو ان المتشيعين المغالين قد عدوا نظرية المادية التاريخية في عداد النظريات العلمية الثابتة التي لا تقبل النقض مطلقاً وتصدق في كل زمان ومكان ، والثاني لأنها تناولت بالتفسير والتعليل حالات اجتماعية ـ تاريخية ـ نفسية . وفي التاريخ والاجتماع لا يمكننا أن نرتجل نواميس اعتباطاً ونقرر أن الجماعات ستسير حتماً بموجبها . فاعتبرنا النظرية القائمة على الظن ، أو التي ثبتت صحتها في ازمنة وأمكنة وحالات معينة ولم تختبر في أزمنة وأمكنة وحالات مختلفة ، قانوناً علميًّا لا يتزعزع .

ان كتاب « رأس المال » الذي ألفه ماركس نحا فيه نحواً جديداً وأثار اهتمام المفكرين عامة والمؤرخين خاصّة ، إذ أنه أشار مشدداً إلى الدور الذي يلعبه العامل الاقتصادي في حياة الأمم وكيان الشعوب . كان الأساس الذي يرسو عليه علم التاريخ والدراسات الاجتماعية واهياً جدًّا . كان المؤرخون لا يعنون إلاّ بالناحية السياسية والعسكرية . ويعد الملك وحده قوة وحيدة فعالة في جميع نواحي حياة الأمة . ولما نزل نؤرخ العصور الأدبية ونحددها تبعاً للعصور السياسية.

ومما لا مشاحة فيه أن التطوّرات التي طرأت على أساليب الانتاج قد أحدثت تطوراً في العلاقات الكائنة بين العامل وصاحب العمل ، وقضت على الجفاء ، واللامبالاة التي اتسمت

بها العصور التي تقدمت الثورة الصناعية ، وأثرت في حياة العمال ومستوى معيشتهم ومدّة عملهم ومقتنياتهم من أثاثٍ وأوانٍ وثياب وغذاء . ذلك لأنّ الإنتاج السريع الوفير صبّب أرباحاً هائلة تدفقت على صناديق أرباب العمل وجيوب العمال . وعن ارتفاع الأجور تفتق الذهن عن رغبات جديدة أو كامنة . وبفضل الامكانيات المادّية التي أصبح ينعم بها العامل وشيوع الحرية ، وانتفاء الإمتيازات ، وتعدُّد نواحي الخير في الحضارة الحديثة ، استطاع أن يلج جميع الأبواب ويتمتع بصنوف اللذات . وبفضل تقنين مدّة العمل أصبح ينعم ببحبوحة من الوقت ينفقها في اللهو والعبث ، أو الانصراف للاستزادة من الثقافة ، أو الاستمتاع بالجوّ العائلي . وفي ظلّ النظام الاقتصادي السائد تصدعت أركان العائلة وطغت الروح الفردية في أعضائها فتبدَّد شمل الأسرة . وقد توقع ماركس هذا المصير الكئيب الذي تنتهي إليه العائلة . فيقول : « إنَّ الكلام الفارغ عن العائلة والتربية والحنوّ القائم بين الآباء والأبناء يصبح مدعاة للاشمئزاز ما دامت الصناعة العظيمة ماضية في القضاء قضاءً مبرماً في صفوف العمال على الروابط العائلية . فيعامل الأولاد وكأنهم سلع تجارية بسيطة وأدوات للعمل . فالأسرة بدلاً من أن تكون ملاذاً لأعضائها يفزعون إليها كلما أحدقت بهم الهموم قد تفرق أبناؤها وتشتتوا . وهكذا فقدت العائلة العنصر الهام الذي يبرّر وجودها ويدعو لإجلالها ، وهي الوحدة التي ينميها الاجتماع وما يتخلل الاجتماع من تعاطف ومحبة وعنايةٍ . وتحوَّل البيت الى مجرد مخدع يفد إليه أفراد من مختلف الانحاء وفي أوقات مختلفة ، قد أنهكهم التعب ، وامتصَّ المجتمع ما في قلوبهم من حبٍّ وعطف ، وقضى المعمل والشارع على ما في نفوسهم من عفةٍ وطهارةٍ ، واستنزف الطيش ما في جيوبهم من مال . وبما أن المرأة في المجتمع الماركسي تعد عاملاً اقتصاديًّا أولاً وأمًّا ثانياً ، فقد انتزع صغارها من حضنها وأرسلوا إلى رياض الأطفال . ولئن قدّر لهم أن يحظوا بالعناية والغذاء فإنهم يظلون مفتقرين الى العطف والحنان اللذين لا ينضجان إلاَّ في صدر الأم . وبدأ العامل يحاكي من هو فوقه مرتبة وغنى ويجاريه في معاشه وأطوار حياته . ولكي يبلغ الدرجة التي يصبو إليها ، ويتذوّق ألوان الترف والرفاهية ، عمد إلى تحديد النسل وأذن لزوجه وبنيه بالعمل كي يخففوا العبء عن كاهله . ثمَّ أنّ التطوُّر الاقتصادي حدا بالحكومات أن تسنَّ قوانين تتعلق بالعمل وشؤون العمال فمنحتهم حق تأليف النقابات ، وضمنت لهم المساعدة في حالة المرض ، والتعويض في زمن الشيخوخة ، وفرضت شروطاً على أرباب العمل فيما يتعلق بالنساء والأولاد وحالة البناء وساعات العمل ... وأصبح للعمال بفضل تكتلهم وزن يذكر في الشؤون السياسية عامة .

هذه هي مجمل النواحي التي تأثرت ولا تزال تتأثر بالعامل الاقتصادي وبتطوُّر أساليب الإنتاج. أما ماركس فانه يعزو الى العامل الاقتصادي، كما ظهر من أقواله، قوة تفوق حدّ التصوُّر: فهو الذي يكيف شؤون معيشتنا والسياسة والحقوق والدين والأخلاق، وبالجملة جميع نواحي النشاط الإنساني. إن هذا التفسير المادّي للتاريخ ينسف نسفاً تامًّا جميع الآراء والنظريات التي تقول، وثبتت حقيقتها، إن الانسان يتأثر بالدين والأرض والعرق والخصائص الجسدية والنفسانية. وبمعزل عن المؤثر المادّي، فانه يمر بهذا الكون كما تمر سحابة صيف. فالدين الذي ينكر أثره ماركس من أعظم المؤثرات في المجتمع البشري. وقد ساهمت الديانات مساهمة عظمى في جميع التطورات والمراحل التي مرت بها البشرية. وكثيرون يعزون تقدم بعض الشعوب الى رقي الديانة وسموّ مبادئها التي يعتنقها أبناؤها. ثم أن الدين في لبابه مبادىء أخلاقية تهذب سلوك الانسان وتصلح نفسه وتطهرها من أدرانٍ كثيرة. والدين يتوخى السلام الدائم للانسان في هذا العالم والحياة في جوٍّ من المحبة. وكل رسالة دينية تتضمن نواهي ومواعظ تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتحض على البر والرأفة والوفاء. وأن الانسان تأثر الى مدى بعيد جدًّا بالطبيعة وما يتعاقب عليها من فصول ويكر من ليل ونهار. نعم أنه تأثر بالنهار الذي يبعثر الأفراد ويبدّد الشمل، وبالليل «ليل الأشباح والأرواح والأخيلة» كما يقول جبران ليل الظلام والمخاوف التي تفرض الاجتماع فالائتلاف. وبهذا الصدد يقول: ألان: «إنّ مؤسساتنا وليدة الليل قبل أن تكون وليدة الجوع أو العطش أو الحب». ومن نظام الحراسة الذي يفرضه الليل يمكننا أن نفهم «لماذا تفضل الأمانة على الشجاعة». ولن يقوى الانسان أن ينجو من أثر المرأة وما ينشب بينه وبينها من علاقة، وما يتخلل هذه العلاقة من حبٍّ وبغض، ووصلٍ وهجر، وما تتصف به من قبح وجمال، وما يؤثر عنها من فضيلة ورذيلة ... ويتأثر كذلك بالرجال والأولاد، والصحة والمرض، والحرب والسلم، والكفر والايمان. من هذه الأمور وغيرها يتكوّن نسيج حياتنا. ولاختلاف التضاريس، وتنوُّع المناخ، وحدوث الغزوات والحروب والمجاعات، والحدود المنيعة التي تحدّ من فعاليات الشعوب ومن مدى اختلاطها واحتكاكها، نصيب عظيم في نشوء المدنيات ونموها وتقهقرها.

إن مبدأ المادّية التاريخية ينافي تماماً مبدأ المسؤولية في الانسان ويئد حرية الاختيار، ونسقط عنه مسؤولية الخير والشر ولا يحق للمجتمع أن يناقشه الحساب لأن لا قدرة له ولا حيلة في صوغ طباعه وتهذيب مناقبه وعواطفه بل هي رهن مشيئة قوة جامدة آلية.

والايمان بالمادية التاريخية يولد عقيدة الجبرية الاقتصادية التي تحدد مصير الانسان

تحديداً رياضياً. فما دامت أساليب الانتاج هي التي تعين وجدان الأفراد والجماعات فينبغي أن تتماثل الجماعات البشرية في أخلاقها وعواطفها ودياناتها وفنونها وآدابها، إذا تماثلت أساليب الانتاج فيها وبلغت درجة واحدة من التطور الاقتصادي. وفي الواقع ان التمايز في هذا العصر الصناعي قد عظم وازداد وضوحاً وانتشاراً. ولا تتوفر المماثلة إلاّ في البيئات المتبدية المنكمشة. ومرد ذلك الى أن الجماعات البشرية لا تخضع للمؤثرات الاقتصادية فقط، بل أنها تتأثر بجميع التيارات، من أدبية وعلمية وفنية ونفسية وبدنية، التي تتفاعل طليقة ضمن تخوم القطر الواحد، وتتأثر بالتيارات المنبثقة عن مختلف البلدان. وقد أصبح من الميسور في هذا العصر انتشار الحضارات. ويزداد التنوع ويعمق ويعظم بمقدار ما يتمتع الانسان بحرية العمل والقول والفكر والوجود. فالعمال الذين يعملون مجتمعين ساعات معدودات في المصانع، يتفاعلون فقط ضمن الجو العملي وما يتفرع عنه من اهتمام بمصالحهم وأجورهم. لكنهم لا ينسلخون عن المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه، ولا ينقطعون عن التأثر والتأثير به من شتى النواحي. ان المجتمع زاخر بالمؤسسات الثقافية من علمية وأدبية وفنية، والصحافة والمسارح والنوادي والكتب وغيرها من ألوان النشاط الفكري والاجتماعي.

وإذا كانت الشيوعية الماركسية مؤمنة بمناعة وصحة التفسير المادي للتاريخ، وان الانسان لا فكاك له من سلطان أساليب الانتاج، ولا يستطيع فرد مهما مما أن يكون دولاباً يدور يمنةً بين دواليب تدور يسرةً، فعلامَ نراها تتوسل لاقرار هذا المبدأ بشتى الوسائل والسبل: انها تشجع كل حركة ترمي الى الاضراب والانتقاض والشغب، وتوجه الصحافة والتأليف والتفكير والوجود توجيهاً صارماً عنيفاً لا رحمة فيه ولا هوادة، وفق هذه الأهداف. ونراها تعاكس وتمقت كل اصلاح، اجتماعياً كان أم اقتصادياً، ذلك لأن كل محاولة ترمي الى اصلاح الفاسد تؤخر الثورة التي تقلب المجتمع انقلاباً يمتد الى الأعماق.

ويقيني أن الآلة التي ابتكرها الانسان والأساليب الاقتصادية التي طرأت على الانتاج لم تنفرد وحدها بالتأثير في حياة العمال أنفسهم، بل أن الفضل العظيم يعود الى زعماء انبثقو من صميم الشعب يحملون بين جوانحهم قسطاً كبيراً من العطف والرحمة وقسطاً أكبر من الفهم والوعي لشؤون العمال ومشاكلهم. ومن الامتهان لعبقرية الانسان وفكره وخيال ان نهبط به الى مستوى الآلة الجامدة ونقارن بينه وبينها. وان في شخص ماركس نفسه ما ينقض قوله ويدحض زعمه. فعندما وضع تآليفه لم يكن سوى مثالي idéologue من طراز كبير. فمثله ومثل غيره مثل مشكاة استضاء بها العمال للاهتداء الى الحقوق المهضومة ولعل حالة العمال لم تكن ما هي عليه الآن لو لم يوجد ماركس.

ذكرت قبلاً أن لابريولا يقول « إن الشيوعية تستطيع أن تتنبأ عن المستقبل » والآن أتساءل : هل تحققت النبوءات التي توقع ماركس حدوثها ؟ لقد تنبأ أن الملكية الصغيرة سائرة في طريق الزوال وستحل محلها الملكية الجماعية . ويرد السبب إلى انتشار وسائل الإنتاج والقوى البشرية التي تتبدد فيما لا طائل تحته والفقر الذى أصاب التربة من جراء الاستغلال المتتالي ، إن هذه النبوءة — ازالة الملكية الفردية — لم تتحقق طبيعيًّا ، بل تمت في الأقطار التي استعمل فيها العنف والمصادرة بغية تنفيذ هذه النظرية . أما في البلدان الأخرى فقد عمدت الحكومات الى تحديد الملكية الفردية تأميناً للمصالح العامة ولإيجاد الانسجام بين مختلف الطبقات لا القضاء عليها . وفي عام ١٨٥٠ كان عدد الأسر في انجلترا التي تملك من ١٥٠ — ١٠٠٠ جنيه ، ٣٠٠ر٠٠٠ عائلة . وفي عام ١٨٨١ بلغ هذا العدد ٩٩٠٠٠٠ أسرة . فما دام عدد الذين يملكون يزداد ، وعدد الذين لا يملكون يتضاءل ، فإننا نبتعد شيئاً فشيئاً عن المحجة التي تنبأ عنها ماركس . وفي ذلك يقول كوتسكي : إذا كانت المساوىء الكبرى الناتجة عن أسلوب الإنتاج الرأسمالي لاصقة بأوائله فقط ، وينبغي أن تتناقص فيما بعد ، واذا كان عدد أولئك الذين يملكون يزداد ، وإذا كانت المتناقضات الاجتماعية تتضاءل شيئاً فشيئاً ، وإذا كانت الطبقات العاملة تأمل أن تتحرر أو على الأقل أن تحرز مكانة مرضية ، فأية فائدة تنجم عن الاشتراكية ؟ أقر بصراحة إنني أعتبر الاشتراكية خطأً فادحاً » .

وليست الحروب التي ملأ ذكرها بطون التواريخ . إلاّ نزاعاً بين الطبقات التي تعود في منشئها إلى التفاوت في المراحل الاقتصادية . ويقول انجلس : « إنّ ماركس أول من اكتشف الناموس العظيم الذى يسم الحركة التاريخية . وطبقاً لهذا الناموس ، فانّ كل ماحدث من المعارك التاريخية في الحقل السياسي والديني والفلسفي وفي أي حقل آخر مثالي ، ليست إلاّ تعبيراً صادقاً تقريباً عن المعارك التي تنشب بين الطبقات الاجتماعية . وينجم عن هذا الناموس أن وجود هذه الطبقات ونزاعها يرتبطان بالمرحلة التي بلغتها حالتهما الاقتصادية وأساليب الانتاج ، وأخيراً بأسلوب المبادلة الذي يتفرّع عن الانتاج » .

ويستخلص من رسالتين كتبهما انجلس إحداهما في ٢٧ اكتوبر ١٨٩٠ والأخرى في ٢٥ يناير ١٨٩٤ أن الظواهر الاقتصادية هي الباعث الأول على حدوث المظاهر السياسية والحقوقية وحتى التصورات الدينية التي لا تعد إلاّ ظلالاً اقتصادية . ولو لم يوجد نابوليون لاحتلّ آخر مكانه . فان كل شيء رهن الواقع والضرورة » .

هل الحروب التي جرت في العصور القديمة أم الحديثة كانت حروباً طبقية أم حروباً بين الأمم ؟ ان جميع الحروب التي نشبت في الشرق والغرب لم تكن حرباً بين الطبقات ، بل انها

في الصميم نزاع بين القوميات التي تقطن أوطاناً معينة وتتكلم لغة واحـدة وتنتسب إلى أقوام تخضع في كينونتها لدورة حياة واحدة . وان العامل لمـا يحقق حلم ماركس الجميل : « العمال لا وطن لهم » لجميع الأحداث ، وأقواها الحرب الأخـيرة برهنت أن العامل مواطن قبل وبعد كل شيء وإنه ينظر إلى الأمور ويزنها من خـلال مصلحة أمته . وما من ثورة أو حرب أو عصيان إلاّ ساهمت فيها جميع الطبقات وكانت نتيجة لعوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية وعرقية وغير ذلك من الأسباب الخفية . من ذا الذي قام بأعباء الثورة الفرنسية ؟ يقول سان سيمون : « ان الثورة الفرنسية كانت من صنع العلماء والفنانين الذين آذتهم النظم الاقطاعيـة في الصميم ، فقذفوا بالمعدمين الجهلة ضد المالـكين المحافظين » . وليست أساليب الانتاج التي حدت بالشعب إلى الثورة ، بل كتـابات ڤولتير التي ما انفكت تحض على التحرر الذهني حتى تنال الحرية ، وكتابات روسو التي كانت تدعو إلى الفوضى الاجتماعية إلى أن تحصل المساواة والعدل . ولم يقم العبيـد وحدهم في الثورة التي نشبت في روما ، بل كان يوجد بينهم عدد غير قليل من الأغنياء الذين كانت تحدو بهم الرغبة إلى تسلم زمام الشؤون السياسية التي لا تتطلع إليها الطبقة الفقيرة المعدمة . فتضافرت مطامع الطبقة الفقيرة التي تتوخى العدل الاجتماعي ومطامع الطبقة الغنيـة التي تنشد المنصب والجاه . وان الحروب الصليبية لم يكن سببها الباعث الاقتصادي ولم يكن رائدها الاقتصاد ولم يلح فيها ظل للطبقات والفوارق العنصرية واللغوية والاقليمية ، بل إنها صهرت قوميات شتى كانت متباعدة متباغضة . وتعود في أبعد أسبابها إلى نعرات دينية تمثلت في الفريقين المتحاربين . وان الذي دفع إليها ونمى الحركة وجعلها تشمل معظم شعوب أوربا البابا ذاته . ولا يتطرق الشك إلى مدى السلطة التي كان يتمتع بها يومئـذٍ . فقـد جمع في قبضته السلطتين الزمنيـة والروحية . ولم يكن يسعى لتيسير سبل التجـارة ، بل كان يسعى لانتزاع القبر المقدس من قبضة الدولة المسلمة المسيطرة . وقد ترتب على هذه الحرب الدينية نتائج اقتصادية خطيرة : فتوشجت العلاقات بين الشرق والغرب ولاحت للفريقين امكانيات تجارية لم تكن في الحسبان فان القبر المقدس أصبح يجذب سنويـًا ألوفاً من نصارى الغرب الذين يؤمون الديار المقدسة. وقد نشأ عن تدفق الحجاج الى سوريا شركات للملاحة في البندقية ومرسيليا . ولست أعدو الغرض المعقول إذا قلت أن اكتشاف أميركا فكرة نبتت من صميم العـلاقات التي تلت تلك الحروب . إذ من المعلوم أن مدن الشرق : القسطنطينية وحلب ودمشق وبغداد ، كانت أسواقاً لحاصلات الشرق الرئيسة . وان ابان غزوتهم سوريا قد تعرّفوا الى هذه المراكز . وتذوّقوا الأفاويه وشاهدوا العاج والأقمشة الحريرية والسجاد . وعلامَ كان يبحث كولمبوس ؟ ألم

تكن الهند ، منبع الغرائب ، هدفه ؟ وان البرم الذي أصاب التجار من طول الطريق الشرقية وأثرها في ارتفاع الأسعار حملت أولي الشأن على التفكير جديًا في الاتصال مباشرةً بالهند . وعلى أثر الحروب الصليبية تغيرت معظم خطوط الملاحة وطرق التجارة البرية . ولا يتسع المجال لذكر الفوائد الزراعية والصناعية والعلمية التي حصل اقتباسها من قبل الطرفين لدن احتكاكهما .

وتستولي علينا الحيرة إذا ما رمنا تعليلاً صحيحاً لاختراع المطبعة . هل هي التطورات الاقتصادية أم الثقافية التي وجهت ذهن جوتنبرج ودفعته للبحث والتفكير بطريقة تريح الناس من عناء النسخ ؟ لا نجد لذلك تعليلاً معقولاً إلاّ في التقدم الثقافي وتفتح الأذهان وما ينشأ عن ذلك من رغبة ملحة للمطالعة والبحث والتنقيب واقتناء الكتب . وعلى أثر اختراع المطبعة ، وطبع الكتاب المقدس ونشره بين الناس بلغة سهلة سلسة ، بعد أن كان وقفاً على الكهنة ولا يتجاوز نطاق الصوامع والأديرة ، حصلت حركة الاصلاح الديني التي نادى بها لوثيروس . زد إلى ذلك الكراهية التي كانت تضمرها الشعوب الشمالية للشعب الايطالي الذي يتحكم في شؤون الكنيسة . وقد أزكى لوثيروس هذا الاستياء بعد عودته من روما إذ قال : « ان الجرائم في روما لا توصف . فمن الألمان شريرون . أمّا الطليان فانهم كفرة ويهزؤون بالدين الحقيقي . إنهم يسخرون منّا نحن المسيحيين ، لأننا نؤمن بكل ما جاء في الكتاب . . . ويخشون القديس أنطونيوس أكثر مما يرهبون المسيح . . . » وكانت النهضة الأدبية في القرن السادس عشر نتيجة لازمة لبعث الثقافتين الأغريقية واللاتينية ونشر المؤلفات القديمة . إن المطبعة أحدثت حركة للنهضة في القرن السادس عشر ، أما في القرن التاسع عشر فانها نشرت المجلة والجريدة . ولا يمكننا بحال من الأحوال أن نحدد الأثر العظيم والدّور الكبير الذي لعبته الصحافة في العصر الحديث . إنها أكبر أداة للتوجيه والاذاعة في هذا الجيل . وإنّ ماركس نفسه مدين للصحافة التى عملت على تبسيط ونشر نظرياته ومبادئه في صفوف الشعب . ولا يعد تحقيق الماركسية الشيوعية في روسيا انتصاراً لمبدأ المادّية التاريخية بل تكذيباً قاطعاً وتأييداً صارماً لضعف النظرية وفشل النبوءة . ذلك لأن الثورة الشيوعية نشبت في البلاد التي لم تترعرع فيها الرأسمالية وتظهر مفاصدها ومساوئها ، وإن أساليب إنتاجها كانت متأخرة إذا ما قورنت بالدول الغربية ، لكن استتباب الأمر للشيوعية عام ١٩١٧ يعود إلى ضعف الجهاز الحكومي القيصري الذي انهار عند أول صدمة ، وبانهياره آلت البلاد إلى يد حازمة حديدية هي الحزب الشيوعي . وقد تكون روسيا مدينة في ثورتها الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ السياسية لا الى ماركس وتلاميذه فحسب ، بل الى الشبان الذين عاصروا مراحل الثورة الفرنسية ، وشهدوا يقظة الروح القومية في البلاد التي غزاها نابليون ، ورأوا

عن كثب الفرق الهائل بين مستوى حالة الفلاح الفرنسي والفلاح الرومي . ويقول « بليكانوف » في كتابه القيم « المدخل الى تاريخ روسيا الاجتماعي » الذي ألفه وهو متشبع بمبدأ التصور المادي للتاريخ ، ان الانتصار الذي أحرزته القبائل المتبدية على الروسيا في اقطاع كييف ، اضطر الجماعات الروسية أن تنسحب صوب الشمال والشمال الغربي من روسيا ، مما أدى إلى تأخر ظهور المدنية الروسية وسبب انحطاط الطبقات القروية . ويذكر أيضاً ان للوسط الجغرافي الرومي اثراً بارزاً في التاريخ السياسي من جميع الوجوه .

ولا يمكننا ان نسلم بصحة قول أنجلس : « إن كل شيء رهن الواقع والضرورة » . فالظروف تكوّن الجو الملائم لظهور الشخصيات ، لكنها لا تخلق الأشخاص وما ينطوون عليه من خلق وفكر وخيال . ولو كان الأمر للظروف التي يسري تأثيرها على الجماعات بمعدل واحد لجعلتهم نسقاً ، وعلى درجة واحدة من الوعي والفهم ، فلو لم يظهر محمد في الحجاز يومئذٍ لما ظهر غيره . والبرهان على ذلك أن تلك البلاد عجزت عن انجاب شخصية كمحمد قبل أن يولد وقبل أن يبلغ سنّاً معلومة رغم أن ظروف المعيشة وملابسات الحياة وأحوال الجزيرة لم تصب بتغيير أو تبديل . وما من عظيم كان وليد ضرورة ساعة ظهوره ، أو استجابة لنداء الجماعات المتضورة . ولو كان وليد الضرورة القاهرة لما حورب مصلح ولا نبي ولا اضطر هو أن يحارب الجماعات التي ظهر في وسطها أو يكافحها تارةً باليد وطوراً باللسان . فيسوع صلب ، ومحمد هاجر وحارب بغية اقرار فكرة التوحيد في القلوب . وان يسوع يعبر عن الحقيقة التي اكتنفت رسالته إذ يقول : « ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً . فاني جئت لأفرق الانسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها » . ولو كان المجتمع العربي يشعر آنئذٍ بتعطش حقيقي إلى رسالة سماوية لما عامل محمداً معاملة تجلت فيها الغلظة والقسوة والكفر . وكيف نستطيع أن نعلل تغلغل الرسالات السماوية رغم منافاتها للمبادىء السائدة والعقائد المستقرة ورغم العراقيل التي تعترضها ، والشر الذي بلاه المبشرون بها .

جميلٌ أن نجمع في العقيدة بين الولاء للأرض والتطلع الى السماء ، ونصل في الحياة بين القلب والبطن ، ونوفق بين رغبات الروح ومتطلبات الجسد . وليس بجميل أن تحول الارض بيننا وبين السماء وتطغي المادة على الروح . انني أؤمن بالانسان وما فيه من قوى فاعلة في سبيل الخير والجمال والحق ، وأؤمن ان الحياة سوف لا تنفك تغربله في غربال اللذة والألم كي تدنيه شيئاً فشيئاً من المحجة القصوى التي تتجلى في المحبة الشاملة . وركب الانسانية ما انفك سائراً صوب هذا الهدف رغم وعورة الطريق وطولها وكثرة الأهواك وخور العزائم .

صافيتا — سوريا **الياس يعقوب**

المرأة في البرلمان

لم تذهب صيحات الاتحاد النسوي عبثاً . ولا انطلقت صرخات السيدات أدراج الرياح بل قرعت آذان كثيرين من ذوي الشوارب، واستجابت لها نبضات قلوب الطبقات الراقية . وجاوبتها نغمات عواطفهم ونبرات رشادهم . وكان من هذه النبضات ان صحت عزيمة الأستاذين الكبيرين سعادة علوبة باشا وسعادة علي زكي العرابي باشا ان يتقدما إلى البرلمان كل منهما على حدةٍ بمشروع قانون يخوّل المرأة المصرية حتى الانتخاب . وقد كان لي الحظ أن اطلع على قسط من مشروع علوبة باشا فرأيته مُدعماً بالمنطق القاهر والحجج الدامغة فضلاً عن السندات القرآنية الناصعة الحق .

ولا ندري الآن ماذا يلاقي هذا المشروع من مناقشات أعضاء البرلمان، وبكم يهاجم من الحجج الواهية والبراهين المتصدعة . ولكننا نعلم منذ الآن إنه سيلاقي من خشونة الجنس واعتصاب النفوس المتعصبة وقذائف التقاليد المتحجرة ما يستميل عنه إلى نقيضه من أكثرية المجلس . وقد تكون أكثرية ساحقة . ومهما كانت قليلة أو كثيرة فالأرجح ان المشروع يحبط في المرة الأولى ويصفق لحبوطه الأنانيون المستبدون المستلذون الاستعباد . على أن حبوطه لا يكون هلاكاً إلى الأبد . بل لا بدَّ أن يبقى فيه رمق ، أو أنه يولد ثانية عن يد ذينك الفاضلين اللذين في مقدمة من يدفعون بالمجتمع المصري إلى الامام في سبيل رقيه ويشترك معهما آخرون ممن يتفقون معهما في هذه النزعة الاجتماعية المباركة .

على أننا نعرف منذ الآن ماذا تكون حجج المعارضين والمقاومين والمناكدين الذين من خليقتهم سجية الاستبداد ، والمختمرين بعقيدة أن المرأة مهما ارتقت فبحكم خِلْقتها يجب أن تكون أمة أو شبه أمة، على الرغم من منح الكتب المقدسة لها حقوقاً اجتماعية واقتصادية كحقوق الرجل .

أول حجة عند خصوم المشروع أن المرأة خُلِقت بطبعها ثانوية للرجل ، ولها وظيفة

في الأسرة، تختلف عن وظيفة الرجل كل الاختلاف بل هي دونها قيمة وشأواً . وبالتالي يمتد هذا الاختلاف إلى جميع الأحوال الاجتماعية .

يقولون إن وظيفة الرجل خارج المنزل مختصة بالسعي إلى الرزق للقيام بمعيشة الأسرة . وإن وظيفة المرأة حضانة الأولاد وتربيتهم والقيام بجميع الواجبات المنزلية .

حسنٌ . ولكن هل وظيفة المرأة هذه دون وظيفة الرجل قيمة ؟ وهل تقتضي مجهوداً أقل مما تقتضيه وظيفة الرجل ؟ لا لعمري . إن وظيفتها أهم جداً وأغلى قيمةً وعملها أشق جداً من عمله . فلكي تقدم المرأة للمجتمع رجلاً وطنياً نشيطاً ونافعاً ومخلصاً لوطنه يجب أن تحمله جنيناً في أحشائها تسعة أشهر أولاً . ثم تضمُّه إلى صدرها وفي حجرها شهوراً أخرى ، ثم ترعاه بضع سنين إلى أن تقدمه الى المدرسة فالكلية . ولا تنتهي مهمتها بشأنه حتى بعد أن يصير يافعاً ، بل بعد هذه السن تبقى مشغولة به عاطفة عليه مهتمة بحياته إلى أن يستقل . أضف إلى مهمة تربيته سائر الواجبات المنزلية المعروفة . هذه وظيفة المرأة إذا كان عندها ولد واحدٌ ، فما بالك اذا كان عندها بضعة أولاد ؟ لا أظن أباً من الآباء من يجهل أو يتجاهل أن عمله الذي يستعظمه تجاه عمل المرأة إنما هو عمل يومي يجري على وتيرةٍ واحدةٍ منذ يضع نظامه إلى أن يتقاعد عنه . فمتى جرى الرجل في سياق العمل أصبح النظام يعمل من تلقاء نفسه من غير أن يعنت هو فيه نفسه كثير الاعنات . لذلك يجد الرجل عنده متسعاً من الوقت للتسكع في طريق الحياة والاختلاف الى المقاهي والملاهي والمعشر الفكه وأحياناً إلى المعشر الفاسد .

فاذا كانت تلك وظيفة المرأة التي هي مهمة إعداد رجال المستقبل وبنيان المجتمع المتين أفلا يجب أن يكون لها ضلع في إدارة هذا المجتمع ولو من قبيل الرأي أو اختيار ذوي الرأي والادارة ؟

* * *

وأقوى حجة يحتج بها خصوم المشروع هي أن السواد الأعظم من النساء عندنا لا يزلنَ أمّيات جاهلات ، فلا يصلحنَ للتمثيل في البرلمان ولا للانتخاب . يمكن إعطاؤهنَّ هذا الحق متى تعلمنَ ولو بعض العلم أو تعلمنَ القراءة والكتابة على الأقل ، إذ تصبح معلوماتهنَّ بشؤون الحياة أوسع نطاقاً منها الآن ولا سيما إذا صرنَ يطالعنَ الجرائد والمطبوعات الأولية كأخواتهنَّ الأوربيات والأميركيات .

حسن . هذا صواب . فإذن يجب أن نُلغي برلماننا بتاتاً ونعود الى الحكم

المطلق لأن السواد الأعظم من الرجال كالسواد الأعظم من النساء أميّون جهلة لا يفهمون شيئاً من مشاكل الحياة الاجتماعية ، ومن السياسة الوطنية . وإذا كانت الأمية سبباً حتميّاً لحرمان الفرد من حق الانتخاب ، فالانصاف يقضي أن يحرم جميع الأميين رجالاً ونساءً من هذا الحق على السواء ، وأن يقتصر على المتعلمين فقط من الفريقين . وحينئذٍ نرى أن عدد المنتخبين لا يفوق على عدد المنتخبات (بكسر الخاءَين وفتحهما) لأنه ما من أبٍ مثقف ولو بعض الثقافة في هذا الأوان يحرم بناته حق التعلم الى حدٍّ ما . ولا نرى فتىً متعلماً إلاّ نرى تجاههُ فتاة متعلمة . ولا مزية للرجال على النساء في المعرفة . كلا الفريقين في الثقافة والأميّة سواء .

واما أن نمنح حق الانتخاب لكل ذكرٍ بالغ ونمنع هذا الحق عن كل أنثى على الاطلاق حتى المثقفة ، فهو من أغرب سخريات الزمان وأضحك المضحكات . أليس مستهجناً أن تقبع السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي رئيسة الاتحاد النسوي في العالم العربي في بيتها يوم الانتخاب وان يذهب بواب دارها الى دار الانتخاب لكي يعطي صوته ؟ أو أن يذهب خادم السيدة أمينة السعيد لكي يعطي صوته وهي تحرم هذا الحق .

وإذا كان لا بد من عدم الانصاف هذا بين الفريقين فيجب على الأقل أن تعطى السيدة المتعلمة حق الانتخاب أسوةً بالأمي الجاهل وتحرم منه المرأة الأمية ريثما تتعلم . والأ فهذا الاجحاف سبة في دستور البلاد .

أفظع مما تقدم أن يكون بين نواب الأمة أميون لا يحسنون كتابة كلمة غير كتابة امضائهم التي مارسوها لهذا الغرض على الرغم من أن الدستور يحرم على الأمي أن يرشح نفسه للنيابة .

* * *

أما حرمان المرأة المثقفة من حق النيابة في البرلمان فيبرره خصوم المشروع بأن المرأة مقيدة بواجباتها المنزلية ، فلا يجوز أن تترك هذه الواجبات لكي تخوض غمار السياسة وتحضر الجلسات وتناقش ، وأخيراً توافق أو لا توافق . وإذا كانت الواجبات المنزلية تمنع نيابة المرأة فواجباتُ الرجل المعاشية تمنعها أيضاً . على كلا الفريقين واجبات فما يمنعها هذا الحق يمنعه ؟

والعادة أن يكون النواب من الأشخاص الموسرين القليلي الواجبات الشخصية ولهم متسع من الوقت لحضور الجلسات البارلمانية . والمجلس لا ينعقد إلاّ مساءً بعد انصراف الناس من أعمالهم . والسيدة التي يساعدها خدمها في ادارة المنزل لها أيضاً متسع من الوقت

في ذلك المساء كما أن لها وقتاً للزيارات والملاهي . وبالطبع لا ترهق نفسها إلاّ المرأة الموسرة التي عندها خدمٌ وبرهات كثيرة من الوقت لحضور الجلسات فضلاً عن المطالعة وتدوين المذكرات ونحو ذلك .

وحاصل القول أننا لا نرى أن انشغال المرأة في واجباتها النيابية في البرلمان يحول دون قيامها بواجباتها المنزلية ، كما أن انشغال الرجل في البرلمان لا يعرقل أعماله . فهذا الاعتراض واهٍ سخيف كغيره من الاعتراضات المتقدمة .

وقد انتخبت السيدات في بارلمانات أوروبا وأميركا، وكانت لهنَّ آراء صائبة ونفوذاً فما قصرنَ في واجباتهنَّ المنزلية بسبب إنشغالهنَّ في مجالسهنَّ النيابية .

ولجانب من الرجال عقيدة فاسدة يستنكرون بها انشغال المرأة في السياسة ويستهجنون وجودها في المجالس النيابية ونحوها ، وهي أن المرأة أضعف عقلاً من الرجل إلى غير هذا من مزاعم انحطاط عقلية النساء . وهي عقيدة سخيفة لا يخجل مغرورو الرجال وأغبياؤهم أن يجاهروا بها وإلى جانبهم زوجات راقيات لائقات بهم وهم يحرصون على كرامتهنَّ .

يجعلون هذه الحجة في مقدمة الحجج عند نقاشهم في هذا الموضوع على الرغم من أن وقائع الحال تخرس أفواههم إذا كانوا يعقلون . فقد نزلت المرأة في جميع البلاد المتمدنة إلى مضمار العمل ونافست الرجل فيه كما نافسته في ميدان تحصيل العلم ، حتى عندنا نافست الطالبات في جميع الكليات الطلبة ، وفي كثير من الامتحانات تفوقنَ عليهم . فما ظهر في هذا الجنس اللطيف قصور عقلي بتاتاً . والتحقيقات الفسيولوجية والدماغية خاصةً برهنت على أن المرأة والرجل متساويان في القوى العقلية . وليس لفريق مزية أو فخر على الفريق الآخر . ونرى في ميدان الأدب الآن أقلام كاتبات في كثير من المجلات تبزُّ أحياناً أقلام الكتّاب المنعوتين بالقديرين .

ولعلَّ بعض الأنانيين من الرجال يقولون إننا إذا منحنا هذا الحق للسيدات فلا نعود نستطيع ان « نكيفهنَّ » . وهذا قول سخيف لا يصدق إلاَّ على بعض النساء المتدللات المغرورات ، وهؤلاء لا يمكن أن يرتقينَ إلى منصة النيابة البرلمانية . ولا تستطيعون أيها الأنانيون أن « تكيفوا » هؤلاء « المدللات » سواء أكنَّ في مجلس النواب أو في مجالس الأصحاب . فهنَّ نائبات لكم على كل حال رضيتم أم لم ترضوا .

نقولا الحداد

أمس واليوم

حالة مصر الزراعية

يجود علينا الغرب أحياناً برجال يخلصون للشرق ويتدبرون مشكلاته ويتقصّون أسبابها ويشيرون بما يرونه من علاج . ومن أولئك المستشرقين انجليزي اسمه الأستاذ كراوتشلي A. E. Crouchley كان يعمل أستاذاً في كلية التجارة بجامعة فؤاد الأول ووضع من تسعة أعوام كتاباً نفيساً باللغة الانجليزية عن « التقدم الاقتصادي لمصر الحديثة »(١) في نحو ثلاث مئة صفحة .

وقد رأينا أن ننقل بضعة فصول من هذا الكتاب ونعلّق على ما أورده المؤلف حسبما نرتئيه ، ونضيف إليه ما عرض لنا في بحوث حديثة العهد ، لأن هذا المبحث من خير ما كتب عن اقتصاد مصر الحديثة .

* * *

التاريخ موصول الحلقات ، مسلسل الوقائع والأحداث ، لا يقف ولا يبطىء . اليوم هو ابن الأمس وهو أبو الغد . ورغم أن مهمة المؤرخ — إذا تحرّينا الدقة — تتعلق بالماضي فقد يغتفر القارىء لنا إذا نحن استشففنا من أحداث الماضي الخطوط الرئيسة للمستقبل ، وهي المسائل التي ستعرض لنا لا محالة في القريب الداني أو البعيد النائي . ولعله يعذرنا إذا بحثنا هذه المسائل على ضوء تقدم مصر الاقتصادي الحديث .

وأول ما يواجهنا ، مشكلة السكان . فقد نما عدد السكان من مليونين إلى نحو ستة عشر مليوناً (المترجم — يبلغ تعداد مصر الآن نحو ١٩ مليوناً) في قرن وثلث قرن ، وهم آخذون في الزيادة بسرعة فائقة . وكثيراً ما يعربون عن الخوف من اكتظاظ البلاد بالسكان ، سواء في الوقت الحالي أو في الغد القريب مما قد يفضي إلى زيادة ضغط السكان على الموارد الحالية للبلاد ، وما يتبع ذلك من خفض مستوى المعيشة .

غير أننا ينبغي أن نذكر أن مصر كانت تعاني نقص السكان لمّا كان عدد قطّانها يبلغ مليونين ، وإننا لم نستطع الزعم بأن هذا النقص قد عولج إلاّ في القرن الحالي . ولا يمكن

---

(١) Th eEconomic Development of Modern Egypt.

القول إن مصر مزدحمة اليوم بالسكان ، فهناك مساحات كبيرة من الأراضي حديثة العهد بالاستصلاح في شمال الدلتا وقف تقدمها فعلاً بسبب نقص الأيدي الزراعية العاملة . ففي منطقة شربين تبلغ كثافة السكان ٩٥ نسمة في كل كيلومتر مربع ، وفي كفر الشيخ تبلغ ١١٣ نسمة ، وفي كفر الدوار تبلغ ١٣٠ نسمة . وتبلغ كثافتهم من ناحية أخرى في شبين الكوم ٨١١ ، وفي منوف ٧٦٨ ، وفي ميت غمر ٧٠٦ . ويبدو أن في هذه المناطق عدداً زائداً على الحاجة من السكان . والمشكلة الرئيسية هي مشكلة سوء توزيعهم . غير أن الفلاح محافظ بطبعه ومن أعسر الأمور إقناعه بتغيير مكان سكناه ولا سيما أهل الصعيد الذين يعيشون في مصر العليا .

وليس ثمة بوادر تدل على احتمال ازدحام البلاد بالسكان في الغد القريب لأن الأراضي الصالحة للزراعة في مصر يمكن زيادتها بمقدار ٥٠ في المئة إذا أنفقت بضعة ملايين من الجنيهات على الري والصرف .

وبديهي إننا سنصل في النهاية الى المرحلة التي تصبح فيها زيادة مساحة الأراضي الزراعية صعبة أو مستحيلة . وكلما زدنا الضغط عليها أدى ذلك إلى نقص الغلّة في مناطق واسعة . وإذا ظلّ عدد السكان ينمو طوال هذه المدة ، فقد ينشب أمام أعيننا خطر زيادة ضغط السكان على موارد البلاد . بيد أننا نستطيع أن نأمل ، قبل بلوغ تلك المرحلة أن يفضي التعليم العام وتوفير الوسائل الصحية ، والتأثير النفسيّ للقرى النموذجية ، والعوامل ذات التأثير التي تستخدم الآن (كالسيارات واللاسلكي والجمعيات التعاونية ... الخ) أن تفضي جميع هذه العوامل إلى غرس الرغبة في الفلاح في تحسين حالته الصحية والاجتماعية ورفع المستوى العام للمعيشة في القرى ، فينمو الجيل الجديد مشبعاً بآراء أوسع أفقاً من آرائنا ، وأقوى عزيمة من أسلافه ، فيرى الفرد — كما يحدث الآن في عدد كبير من البلدان الأخرى — أن يخفّض عدد أفراد أسرته رغبةً في تحسين حالة معيشة أطفاله .

ولتقدم الصناعة -- في هذه الحالة — شأن كبير . ولا يزعم أحد أن تصبح مصر دولة صناعية تتخلى عن الزراعة كليّة . ومن المبالغة أن نحسب أن الصناعة تستطيع توفير عملٍ لقدرٍ لا حدّ له من السكان المتزايدي العدد . وتستطيع الصناعة في الآونة الحاضرة أن تستوعب بضعة آلاف آخرين من العمال من السكان الذين قد يصل تعدادهم قريباً إلى عشرين مليوناً . غير أن الأجور المرتفعة التي يتقاضاها العمال في الصناعة من شأنها أن ترفع مستوى المعيشة في الريف إمّا مباشرة : بأن ترفع المستوى ارتفاعاً جليّاً بالنسبة لما كان عليه قبلاً ، أو غير مباشرة : بأن تزداد هجرة الريفيين إلى المدن وسيطّرد ازدهار الصناعة بدوره

لأن تحسين مستوى المعيشة في المناطق الريفية سيؤدي حتماً إلى زيادة حاجات الريفيين. وكلما تحضّر الشعب كثرت مطالبه وزادت حاجاته.

غير أننا لا نستطيع أن نرجو حدوث تقدم فعلي ما لم يحقق الرخاء الزراعي. ويجمع جميع المطلعين، وتجمع الإحصاءات كذلك، على أن الاراضي التي تروى ريًّا دائماً رغم أنها تنتج أكثر من محصولٍ واحدٍ في العام، تميل سريعاً إلى فقدان خصوبتها. وتحتاج تبعاً لذلك إلى مقادير مطردة الزيادة من الاسمدة والمخصّبات الكيميائية. وحتى بعد التوصل بهذا العلاج، يصبح معدل المحصول أقلّ بكثير من محصول الأراضي التي تروى بنظام ريّ الحياض. ويحتمل أن تكتشف في المستقبل وسيلة تجمع بين الخصوبة التي تتأتى من تلقاء ذاتها وفقاً لنظام الحياض، وبين زيادة عدد المحاصيل التي تنتج عن نظام الري بالترع (أي وسيلة تجمع بين خير ما في نظامي الري الدائم والحوضي). ومن الضرورات الأولى لتحقيق هذا، اتباع نظام الصرف الملائم. أما الضرورة الثانية فهي إتاحة فرصة كافية للتربة تستريح فيها.

وقد يأتي زمن يوضع فيه تشريع ينص على الفترات التي تستريح فيها التربة في شتى المناطق. وقد يكون من الصالح إلى جانب ذلك أن تغطى الأراضي التي «تستجمّ» من عناء الزراعة بماء الفيضان مرة في كل سنتين أو ثلاث سنين لكي تجدّد التربة شبابها بانتظام وتستعيد خصوبتها ومقدرتها الإنتاجية.

ويبدو أن أيسر سبل الإصلاح اتباع ما يلي:

أولاً — يجري العمل سريعاً لتحويل الأراضي الخاضعة لنظام الحياض في مصر العليا إلى أراضٍ تروى ريًّا دائماً. وسيؤدي ذلك إلى إضافة نحو مليون فدان أخرى إلى الأراضي التي تروى ريًّا صيفيًّا وإلى زيادة مماثلة في مساحة الأراضِي التي يمكن زرعها قطناً.

ثانياً — ينبغي درس مسألة إنشاء خزانات كبيرة أخرى في أعالي النيل. ويمكن القول إنّ ضبط النيل، لأنه لم يتمّ حتى الآن، لم يبدأ بعد. وما دامت مقادير كبيرة من الماء تضيع هباءً في كل خريف مع الفيضان، وجب أن نقول إن ضبط النيل غير كامل. وقد وضعت فعلاً بعض المشروعات لإنشاء سلسلة كاملة من الخزانات عند منابع النيل، ويرجى أن تفضى هذه المشروعات عقب تحقيقها الى التحكم في هذا النهر الجبار المارد، ووضعه تحت إشراف مهندس الري وإمرته.

وسيعوزنا مورد مطرد الزيادة من الماء لريّ وإصلاح ما يربى على مليون فدان من الأراضي في الوجه القبلي ريًّا سنويًّا، وإصلاح نيفٍ ومليوني فدان من الأراضي البائرة

في الوجه البحري ، ولزيادة مساحة الأراضي المزروعة أرزاً وتحسين وسائل الري في الوجه البحري وتوفير الماء اللازم للتبكير بزراعة محصول الذرة النيلية الكبير . ويقدرون أنّ مقدار الماء الذي يخزنه خزّانا أسوان وجبل الأولياء في الوقت الحالي لا يتجاوز نصف الكمية التي سنحتاج إليها عند تنفيذ مشروعات الإصلاح .

وتتقدم الآن أعمال تحويل الأراضي الى الري الدائم واصلاحها في الوجه القبلي تقدماً حثيثاً . أما في الدلتا فان نشر وسائل الصرف من جهة ، وزيادة موارد الماء الصيفي من جهة أخرى ، هما من الضرورات الأولية لمباشرة أعمال اصلاح الأراضي المزمع تنفيذها . غير أن كل تقدم آخر يعرقله قلة الأيدي العاملة — وهو أمر يبدو عجيباً في بلد مكتظ هكذا بالسكان . ومن الصعب ، ولا سيما في الوجه القبلي ، إقناع الفلاح بالمهاجرة علاوة على أن مما يعرقل الهجرة رأس المال الكبير الذي يمس الحاجة اليه في كثير من الأحوال . ولذلك ، قد يبطىء التقدم في الوقت الحالي إلى أن يزداد عدد السكان في تلك المناطق ويتوفر رأس المال اللازم .

وينبغي أن نلاحظ أن تحويل الأراضي التي تروى بالحياض الى الري الدائم لا يصادف تأييداً إجماعياً ، لأن الخبراء الزراعيين يقولون إن خصوبة التربة تميل الى الهبوط ، وإن معدّل الإنتاج يميل إلى النقص إذا عولجت الأراضي الزراعية بهذه الكيفية . وهنا تبدو مشكلات الصرف ، وتعوزنا مقادير متزايدة من الأسمدة الصناعية الغالية الثمن . والواقع أن النظام الحالي يؤدي إلى ضياع قدر كبير من الانتاج ، فبدلاً من أن يستخدم طمي النيل الخصيب في تجديد التربة سنوياً ، يضيع هباء ويلقي به النهر إلى البحر مما يضطرنا إلى تعويض هذا النقص باستخدام الأسمدة الكيمائية . والنظام المنطقي الصحيح هو أن نعمل على الجمع بين الري الصيفي والفيضان السنوي ويمكن تحقيق هذا في مساحات كبيرة من الأراضي التي لا تزال تروى حياضياً باستخدام مضخات ارتوازية بدلاً من تحويل الأراضي من الري بالحياض إلى الري الدائم. وقد يتبيّن لنا مستقبلاً أن من الخير استخدام نظام الفيضان الموسمي في المناطق التي حولت فعلاً .

وعلى كل حال ، فإن النظام الحالي ، وضياع ماء الفيضان المحمّل بالطمي في البحر المتوسط هو تبذير وإسراف جليان لا مدعاة لهما وإفراط في مواد ثمينة . فإن ثلثي ما يجري في مجرى النيل من الماء ، يصبّ في البحر المتوسط سنوياً ويحدث هذا في أشهر الفيضان أي من شهر أغسطس إلى شهر ديسمبر عندما يستمدّ النهر تسعين في المئة من مائه من نهري عطبرة والنيل الأزرق ، ويكون الماء محملاً بحمل صخري من الغرين من جبال اثيوبيا . وكان جزء

كبير من هـذا الماء يحوّل إلى الأحواض (وفقاً لنظام الري بالحياض) فيرسب الطمي فيها قبل أن يواصل الماء سيره إلى البحر . أما اليوم ، فإن عيون جميع القناطر والسدود تفتح على مصراعيها إبّانَ فترة الفيضان خشية أن يعوق الطمي عملها او أن يرسب في الخزانات ، فيندفع الماء كله بسرعة دفّاقة رأساً إلى البحر حاملاً معه شحنة غنية من التربة البكر ، تعكر صفاء البحر المتوسط وتحيل زرقته إلى لون ترابي قاتم لمسافة بضعة أميال ، ثم يضيع هذا الغرين إلى غير رجعة . ويقدرون أن الطمي الذي يفقد في كل عام لو وزع توزيعاً عادلاً على ثمانية آلاف فدان ، لبلغ ارتفاعه متراً .

ولو أنّ هـذا الراسب الثمين اختزن في البحيرات المنخفضة على طول الساحل الشمالي للدلتا بدلاً من قذفه الى البحر المتوسط لأمكن سريعاً — وبدون كبير نفقة — تحويل هذه المساحات الشاسعة إلى أراضٍ خصبة صالحة للزراعة .

(المترجم : تبلغ مساحة البحيرات الشمالية التي يشير إليها الكاتب حسبما جاء في تقويم الحكومة المصرية لعام ١٩٣٨ ، ٦٤١ر٠٠٠ فدان تفصيلها كما يلي :

بحيرة مريوط	٥٩ر٠٠٠	فدان
» ادكو	٣٥ر٠٠٠	»
» البراس	١٤٠ر٠٠٠	»
» المنزلة	٤٠٧ر٠٠٠	»
جملة	٦٤١ر٠٠٠	فدان

وكل ما يعوزنا لاصلاح هـذه البحيرات هو تحويل ماء الفيضان بوساطة سلسلة من القنوات ، إلى البحيرات ، ثم ترك الماء يشق طريقـه الى البحر بنفسه عن طريق الفجوات الشمالية . وسيفضي إبطاء مجرى النهر إلى ترسيب الطمي في قعر البحيرات وسرعان ما يؤلف طبقات سميكة . وكلما ارتفع مستوى الأرض بمـا يرسب عليها من الغرين ، أمكن تحويل مجرى الفيضان الى مناطق أخرى . ولا يزال في الوجه البحري أراضٍ واسعة منخفضة بطول ساحل البحر المتوسط يمكن إصلاحهـا . غير أنه من الضروري الاسراع في تنفيذ هـذه المشروعات في أقرب وقت ممكن . ويقدرون أن قيمة الغرين الذي يضيع الآن تبلغ مليون جنيـه سنويّـا . وقد بلغت الخسارة الآن حدًّا أعلى بسبب تحويل أراضي الحياض إلى الري المستديم .

وبتنفيذ مشروعات الري الجديدة مستقبلاً في السودان وأثيوبيا وأواسط أفريقيا ،

يمكن التدرج في ضبط النيل . والهدف الأسمى الذي يهدف اليه مهندس الري هو الوثوق من عدم ضياع قطرة واحدة من ماء النيل . وسيأتي الوقت الذي فيه لا يقذف الى البحر سوى ماء الصرف المحمل بالأملاح . ولكن قبل أن يجيء هذا الزمن ، ينبغي أن تلتفت مصر إلى تدبر هذا المورد المؤكد من الثروة التي تضيع اليوم هدراً .

* * *

ولعلّ مشكلة الصرف أدعى الى الاسراع في علاجها من سواها ، فقد أدركت الحكومة أن من الواجب عليها في هذا الصدد توفير مصارف عميقة رئيسة مجهزة بمضخات قوية لتجعل مستوى ماء التربة منخفضاً . غير أن هذه المصارف الرئيسة ، لكي تصبح ذات تأثير فعال ، تحتاج إلى أن تكون متصلة بعدد لا حصر له من المصارف الثانوية تغطي المنطقة التي يراد صرف الماء منها بأسرها . وإن توفير هذه المصارف مهمة كبيرة تلقى على عاتق الحكومة لأنها لا تملك الهيئة التي تشرف عليها أو الوسائل التي تعالجها بها ، وليس من وسيلة لارغام أصحاب الأملاك أنفسهم على توفير المصارف فى أراضيهم . ولن يكون من المتيسر تنفيذ هذا . فنظام الصرف ، ليكون فعالاً ، ينبغي أن ينظم في رقعة واحدة واسعة بمقتضى نظام تعاوني يكون لكل فلاح نصيب فيه . غير أن عدداً كبيراً منهم لا يملك المال اللازم لتحقيق هذا المشروع الكبير النفقة . فضلاً عن أن توفير المصارف المكشوفة (كالترع) مضيعة للأرض التي تشغلها لأن عشرة في المئة من الاراضي المزروعة تستغل في المصارف المكشوفة. أما صغار الملاك ، فان حفر مصارف مكشوفة، مهما تكن صغيرة ، كافٍ لأن يشغل أرضهم بأسرها . وحل هذه المشكلة قد يكون بتوفير مصارف مغطاة ، وهي أنابيب تمدّ تحت الأرض على عمق مناسب بنظام منحدر قليلاً لتستدرج ماء التربة إلى قنوات الصرف . ولهذا النظام مزايا جمة ، فمتى تمّ تحقيق هذا المشروع ، لن تحتاج الانابيب إلى نفقات أخرى لصونها ، ويصبح الصرف مؤكداً ، ولا يضيع شيء من الأرض كما هي الحال في المصارف المكشوفة .

* * *

ويبدو أن الحكومة ليست على استعداد الآن لتشرع فى تنفيذ هذا المشروع الوثّاب. غير انه من الواضح أن المشروع لا يمكن تحقيقه تحقيقاً مرضيّاً إلاّ إذا أمكن تنظيمه تنظيماً مركزيّاً . وعلى هذا ، فالحل النهائي هو أن تؤلف الحكومة الهيئة اللازمة للإشراف عليه ، على أن تقتسم الحكومة والزراع نفقاته عن طريق زيادة الضرائب الزراعية مثلاً .

القطن المصري

ويبدو أنّ هناك شيئاً من الريب في أن يظل القطن لسنوات قادمة محور الاقتصاد المصرى . فليس في مصر محصول سواه يمكن زراعته في مساحات واسعة وبيعه بمقادير كبيرة تدرّ على الفلاح المصري ريعاً يوازي ريعه من بيع محصول القطن . وإذا كانت الزراعة القطنية قد تقدمت في مصر ، فسبب ذلك راجع إلى انها برهنت على نجاح شهده محمد علي ، وهو الذي أدخل هذه الزراعة في مصر ، ثم احسّ به الفلاح نفسه . وإن أيّ نزول كبير في سعر القطن قد يفضي — وكثيراً ما أفضى — إلى عدول بعض الفلاحين عن زراعته وقتيّا واستبداله بمحصولات أخرى . غير أن الاسعار ما تكاد ترتفع حتى يقبل الفلاح من جديد على استنبات القطن .

ويحتمل كذلك ان تواصل مصر إصدار نسبة كبيرة من محصولها إلى الخارج وقد أفضى تقدم صناعة الغزل والنسج في مصر إلى حجز مقادير مطردة الزيادة في هذه البلاد للاستهلاك المحلي . ومصر تستهلك في الآونة الحالية خمسة في المئة من المحصول لاستخدامه في صناعة النسج المحلية . ويوازي انتاج المنسوجات القطنية المحلية نحو ثلث ما تحتاج البلاد إليه منها . فاذا أتى وقت استطاعت فيه مصر أن تنسج كل ما تحتاج إليه من المنسوجات محليًّا ، فلن تستهلك سوى خمسة عشر في المئة من الانتاج القطني الحالي . وإذا زادت غلّة القطن مستقبلاً ، كما هو متوقع ، فإن النسبة ستنخفض عن هذا التقدير .

والواقع أن شطراً كبيراً من الحاجة المحلية ينصبّ على السلع القطنية الرخيصة وكان يمكن مواجهة هذه الحاجة باستخدام القطن ذى التيلة الضعيفة كالقطن الهندي مثلاً . ولكن الحكومة تحظر الآن استيراد القطن من الخارج ، والنتيجة المباشرة لهذه الحالة هي أن تعمد المصانع المحلية إلى غزل القطن المصري الجيّد لاستخدامه في أغراض ليست كبيرة الشأن . ويبدو أن من مصلحة الاقتصاد المصري عامةً الترخيص باستيراد قطن ذى تيلة رخيصة لينسج في المصانع المصرية مما يؤدي إلى خفض أسعار السلع القطنية للطبقات الفقيرة وإلى بيع القطن المصري ذى الرتبة العالية بأسعار مرتفعة في الخارج .

ومن الضروري لمصر كذلك أن تعرف بالتحديد أي اتجاه في التقدّم القطني يحقق لها خير مصالحها مستقبلاً . فمنذ نشوب الحرب (المترجم — حرب ١٩١٤ — ١٩١٨) وضعت سياسة لإجراء التجارب تعدّل كلما تحوّل اتجاه السوق . فحدث بعد الحرب مباشرةً أن زاد الطلب زيادة غير عادية على القطن طويل التيلة كالسكلاريدس وزاد سعره

على سعر القطن الأميركي كثيراً . وكان الفلاح يتبين أن من الخير له أن يزرع مساحات شاسعة من أرضه بالسكلاريدس رغم إن معدّل إنتاج الفدان لم يكن كبيراً جداً . وعلى كل حال ، اتجه الرأي منذ ذلك الحين إلى زراعة أنواع رخيصة من القطن للاغراض التي كان السكلاريدس يستخدم فيها قبلاً ، وانخفض سعر هذا القطن لأن الأسواق محدودة نوعاً . وإذا دعت الحاجة مستقبلاً إلى زراعة هذا الصنف الممتاز من القطن ، فلا يُظنّ أن تستطيع مصر مواجهتها سريعاً .

والسوق الآن محدودة في وجه هذه الأصناف ، غير ان هناك سوقاً غير محدودة للقطن المعروف باسم Uppers . والواقع ان القطن المصريّ من هذا النوع أجود من القطن الأميركي حتى ان الغزالين يؤثرون القطن المصري على الأميركي . ولكن نظراً لأن سوق القطن الأميركي توازي أضعاف ما تستطيع مصر أن تنتجه من القطن فهناك احتمال بأن يباع أكبر قدر من القطن المصري . والعقبة الوحيدة هي مسألة السعر. فإذا بيع القطن المصري بسعر القطن الأميركي كان معنى هذا أن تباع سلعة جيدة بثمن سلعة أقلّ جودة . ومن الناحية الأخرى لن يكون من المحتمل بيع محصول مطرد الوفرة بثمن مرتفع ما لم يكن هناك طلب عليه . فينبغي أن تهدف سياسة مصر القطنية مستقبلاً إلى العمل على زيادة الطلب على القطن المصري وعلى جعل البلاد الأخرى تفضله عن الأنواع الأخرى .

أما في ما يختص بالأسعار التي ينبغي أن يباع القطن المصريّ بها ، فإنها تتوقف على السعر العالمي الذي يتحكم فيه الأميركيون إلى حدٍّ كبير. وكل ارتفاعٍ أو نزول في الأسعار في أميركا يصحبه تأثير مماثل في مصر . وقد يتفاوت السعران قليلاً ، بيد أن المعروف عادة أن مصر عاجزة عن أن تؤثر تأثيراً حاسماً في سعر القطن في العالم . والأمر الوحيد الذي تتحكم فيه مصر إلى حدٍّ ما ، هو أفضلية القطن المصري على القطن الأميركي . وتستطيع مصر إذ تعمل جاهدة على تعريف الغزّالين والعملاء التجاريين بجودة القطن المصريّ مما يؤدي بدوره إلى زيادة الطلب عليه ، أن تزيد الدخل الاجمالي الذي تظفر به من بيع المحصول . وليس في الطاقة تحقيق هذا إلاّ بالدعاوة المنظمة وإنفاق بدر المال على الاعلان عن القطن المصري . ولسوف تُغطّى نفقات الإعلان عدة مرات بما تربحه مصر من بيع قطنها .

ولهذا الأمر شأن كبير لأن الموقف الحالي في ما يختص بإنتاج العالم من القطن غير مستقرّ فمنذ عام ١٩٣٢ احتفظ سعر القطن بمستوى مرتفع بسبب النقص الكبير في انتاج القطن الأميركي . وعكفت الدول الأخرى على تحيّن هذه الفرصة فزادت إنتاج القطن بنسبة كبيرة حتى تضاعف الانتاج فيها منذ عام ١٩٣٢ . ولا يتوقع أن تستمر هذه الحالة بدون تغيير

والإجراء البديهي هو عقد مؤتمر عالمي للدول منتجة القطن . غير ان زيادة المساحة المزروعة قطناً والمصالح المتباينة للدول التي تزرعه تجعلان من العسير جداً إدراك اتفاق عام . وان تركيز السيطرة على الأسواق في يد أميركا ستتبعه فترة يمكن أن يزيد الانتاج فيها على الاستهلاك ويفضي هذا الى نزول عام في الأسعار. وإذا تركت السوق حرة فان السعر سيحدد نفسه بنفسه ، غير أن هذا سيكون له ضحايا . أما المناطق التي تنتج القطن على الهامش (أي أنه ليس المحصول الرئيسي لها) فستضطر إلى العدول عن انتاجه بسبب نزول أسعاره . ولا ريب في أن بعض البلدان يستطيع أن يتحول إلى زراعة محصولات أخرى . أما مصر ، فانها ستتأثر بلا ريب بنزول أسعار محصولها الرئيسي ، بل يحتمل أن تتجه النية الى زراعة محصولات أخرى بدلاً منه . غير أن المزايا الطبيعية العظيمة التي تساعد مصر على انتاج القطن قد تحفزها على العودة الى زرع القطن حالما يعود السعر العالمي الى مستوى اقتصادي مستقر لأن القطن هو المحصول الذي يدر على زراعه أكبر دخل فضلاً عن أن انتاج مقادير كبيرة منه وقلة نفقات الانتاج (باستثناء ايجارات الأراضي ويحتمل أن تنزل قيم الايجارات بسبب هذه الأحوال الجديدة) سيجعلان لمصر مقاماً ملحوظاً كبلد منتج للقطن .

ويعود إقبال مصر على زراعة القطن الى سببين رئيسيين أولها ، كما أسلفنا ، جودته وثانيهما : انتاجه الوفير .

وعلى الرغم من التدهور الذي حدث في مستهل هذا القرن ما فتئ متوسط انتاج الفدان من القطن في مصر يبلغ نحو ثلاثة أضعاف متوسط انتاج الفدان في أميركا .

وينبغي أن يهدف الفلاح والحكومة الى زيادة المزايا التي تتمتع بها مصر ، وذلك بزيادة انتاج الفدان وتحسين أنواع القطن . وإذا تسنى إتمام ذلك فليس ثمة ما يحول دون ارتفاع انتاج القطن إلى ١٥ مليون قنطار أو أكثر .

وليس معنى هذا أن تزرع مصر القطن دون سواه من المحصولات الأخرى ، بل إن الحاجة الشديدة لتدعو — على النقيض من ذلك — إلى أن تسعى مصر سعياً حثيثاً إلى تعزيز أساس الرخاء الاقتصادي بادخال محصولات جديدة ، والتوسع بقدر الطاقة في زراعة ما يتضح أنه وفير الربح . ولن تقتصر جدوى ذلك على توفير موارد ثروة إضافية كبيرة القدر وحسب ، بل ستساعد على الاقلال بقدر المستطاع من التقلب الاقتصادي الذي سيحدث لامناص ما دامت ثروة مصر تتوقف على سعر محصول واحد .

وربيع فلسطين

المجهر الكهيربي

وصفت المجهر الكهيربي ، وصفاً مقتضباً وذلك في نبذة بعنوان « ثمرات الحرب (الاخيرة) في العلوم والفنون » نشرت في باب الأخبار العلمية بمقتطف يناير سنة ١٩٤٥ ، ثم ضمن مقال آخر تحت عنوان (أحدث المكتشفات التي أسفرت عنها الحرب الماضية ، نشر في مقتطف مارس سنة ١٩٤٦ ، ثم في غير ذينك الجزءين — فجاءتني عقب ذلك عدة رسائل من فئة من القراء والمشتركين الجدد ، تطلب إليَّ كتابة مقال مسهب ، على ذلك الجهاز العجيب ، مع توخي تبسيط الموضوع ما أمكن ، فوعدتهم باجابة رغبتهم عندما تسنح الفرصة ، وها أنذا موفٍ بوعدي لهم فيما يلي : —

هو جهاز تمَّ اختراعه سنة ١٩٤٠ واشتهر في ذلك الحين بأنه أعظم مستنبطات القرن العشرين . بيد أن رائع منافعه العامة والخاصة ، وكذا ثماره العلمية اليانعة المدهشة التي سوف يجنيها العالم في مستقبل أيامه ، وهي التي لم تذع على الجمهور الا حديثاً ، تحدونا على موافاة قرائنا بما أسفر عنه هذا الاختراع من المنافع الباهرة واليك البيان : —

لا مراء في القول ان هذا الميكروسكوب قد شقَّ طريقه في عشرات الميادين ، لخير البشرية ، لخليقٌ بنا أن نعترف مع التحفظ بأنه لم يَفُقْهُ في خطر شأنه في التاريخ الا القليل من المخترعات . ولنضرب لك الأمثلة الآتية وهي تشمل أشياء شتى مما تقع عليه أبصارنا في جميع أحوالنا . ولنبدأ بملابسنا أولاً وهي من ألزم لوازمنا ،

فكل منا يكره مثلاً انتفاخ بنطلونه عند موقع ركبتيه منه وذلك في جلوسه وعند سيره ، وكانت هذه المعضلة مما حلّها الجهاز الكهيربي . ذلك لأنه أقوى من سائر المجاهر البصرية بدرجة تتفاوت بين خمسين مرة ومائة مرة . وهذا من شأنه تسهيل الاضطلاع بمهمة فحص الغزل الذي تنسج منه المنسوجات ، ثم تحليله تحليلاً مدققاً ودراسته دراسة محكمة بغية الوقوف على مبلغ تأثره بالمياه والدهن والحوامض ، بل سائر المواد التي تستهدف

لها المنسوجات . ومن ثمة نجم اختراع أنواع فائقة من الصموغ النباتية إبتغاء التوصل بها الى علاج الغزل لتكسب المنسوجات التي تحاك منه، الدرجة القصوى لمقاومة انكماشها وتشويه شكلها . ومن هذا القبيل أنَّ عالماً من أهل متشيغان تذرّع بهذا الميكروسكوب الفاخر الى استكشاف حقائق كثيرة خاصة بالأسنان البشرية ، اذ جاءَ بأجزاء دقيقة من سِنّ طاحنةٍ ووضعها تحت الجهاز الكهربي الضخم النفيس الذي يبلغ ارتفاعه سبع اقدام وثقله ١٣٠٠ رطل انجليزي وثمنه ١٣٠٠٠ دولار فأبصر العجب العجاب . إذ أيقن أنه يكبِّر حجم المرئيات مائة ألف مرّة . فاستطاع العالم بذلك الجهاز البديع التقاط صور فوتوغرافية للقنوات الخيطية الدقيقة التي تتخلل أضراس كل امرئ .

ومن أغرب الأمور أنه قد تبيّن له أن طول هاتيك القنوات يقرب من خمسين ميلاً في الضرس الواحد ، وأن متوسط مايحويه من القنوات المشار اليها هو ٨٠٠٠٠٠ قناة .

ونعني بالعالم الأمريكي المومأ اليه ، الدكتور ث . هـ . جرولد Dr. C. H. Gerould المعروف في مدينة ميدلند بولاية متشيغان ، وهو مهندس المباحث العلمية في شركة داو الكيميائية ، وفي اعتقاده إمكان الحصول على نتائج مدهشة في منع نقد الأسنان ووقايتها من التلف ، عندما يدخل الجهاز الكهربي في ميدان طب الأسنان .

وقد أصبح ميسوراً للأطباء معرفة المصدر الرهيب للأنفلونزا . وذلك لأول مرة في التاريخ ، بَلْهَ التمكن من قياسه ومشاهدة شكلهِ . وهو المصدر الذي بلغ من دقتهِ أن قدراً طفيفاً جدًّا منه يكفي لحقن خمسمائة فأر وقتلها بحقنة منه لا يزيد حجمها على النقطة التي سنختم بها هذه الجملة . وما برحنا نذكر وباء الانفلونزا المروع الذي اجتاح كثيراً من آفاق العالم منذ أكثر قليلاً من ربع قرن ، حيث قضى على ملايين من الناس ، وكيف كان العلماء حينئذٍ يعزون ذلك الوباء الى جرثومة صغيرة عَصَوية الشكل تكمن في أنوف المصابين وحلوقهم . ثم اخترع العلماء لقاحاً لعلاج ذلك الداء . ولم يكونوا مخطئين في كشف مصدر المرض ، ولكنهم لم يدركوا صغر حجمه، ذلك لأن الميكروسكوب البصري المعروف يكبر قطر الشيء المرئي ٢٠٠٠ مرة . ومن ثمَّ تعذَّرت عليهم معرفة المصدر الحقيقي للعدوى لتناهي دقته تناهياً جعل الخلايا التي تكبّره وتدق

به، تطغى عليه وتخفيه عن وسائلهم الكشافة. فأفضى الأمر إلى تضليل الأطباء عند قيامهم بصنع اللقاح الذي أعدوه لذلك القصد. إذ كانت المادة التي استعملوها في تحضيره يظنونها كلها من الفيروس (١) على حين أنها لم تكن كذلك. بل كان عُشرها فحسب منه نفسه وسائرها من الخلايا الكبرى. أما الآن فإن إدراكهم لحجم الفيروس وشكله وتأثيره في المصاب، (كما تتبين بالمجهار الكهربي) سيعبِّد الطريق للقضاء الأخير على أوبئة الانفلونزا المستعصية المنتشرة في العالم.

ويكاد يستحيل على العقل البشري أن يتصور الآن مبلغ مفعول المجهار الكهربي في مجال تكبير المنظورات. وحسبنا أن نقول إنه يضخم الابرة المعتادة فيجعلها مثل حجم نصب واشنطن (٢) ويكبر الجرثومة حتى تبلغ حجم الوسادة. ويضخم كُريَّة الدم فتصير كحجم مائدة الكتابة.

وبينما يستطيع المجهار البصري المألوف تثخين الطرف الرفيع لفرخ الورق مثلاً حتى تبلغ ثخانته ثلاث عقد أصابع، يتاح لهذا الجهاز الجديد تثخينها إلى تسع أقدام. وكذلك يمكنه تضخيم الشعرة البشرية إلى حجم جذع شجرة قطره ست أقدام. ثم إن حقيقة إمكان تكبير الذرات الصغيرة من المواد، فوق أصلها ١٠٠٠٠٠ مرة على الأقل مع الاحتفاظ بجميع تفصيلاتها في صورتها الفوتوغرافية، وكذا تيسير تضخيم الصورة الفوتوغرافية في بعض الأحوال حتى تفوق أصلها ٢٠٠٠٠٠ مرة أو أكثر، هما من العوامل الجوهرية التي تبعث على تحقيق أحلام العلماء، التي فحواها إن جزيئات المادة وذراتها ستصير يوماً ما من المرئيات المألوفة. ولا عجب فان دراسة الجزيئات غدت من الموضوعات التي يعنى بها العلماء. ومن ثمة يزعمون أن الزمن

---

(١) الفيروس Virus لفظ انكليزي يقصد به عامل من نواقل العدوى وهو أقل جرماً مما تستطاع رؤيته بالمجاهر.

(٢) هو نصب مقام في متنزه الكابيتول حيث شيدت دواوين الحكومة ومجلس نواب الولايات المتحدة الامريكية. وهو عمود أبيض ضخم مقام تذكاراً لجورج واشنطن أول رئيس لتلك الجمهورية الامريكية الكبرى ويبلغ ارتفاعه ٥٥٥ قدماً وله مصعد وسلم حديدي مؤلف من ٩٠٠ درجة يرتقيها الصاعد الى قنته التي يزينها رأس من الالومينيم. ويمتد ذلك المتنزه على شاطئ نهر بوتوماك حيث توجد سلسلة من المباني الحكومية الفخمة ومنها المتحف الوطني والمعهد السمبثوني.

الذي سيتمكنون فيه من رؤية الذرّة قد أزف ، ما دام في وسع الميكروسكوب الكهربي إظهار ذرّات الأشياء الصغيرة جدًّا التي لا يزيد قطرها على جزء واحد من عشرة ملايين من عقدة الأصبع . أو بعبارة أخرى الذرات التي تقل ٤٠٠٠٠ مرة عما تستطيع العيون البشرية إبصارها .

وقد بُدئ في أوربا بالأعمال التمهيدية لهذا الجهاز منذ سنة ١٩٢٠ . اما التجربة الأولى التي جربت في القارة الأمريكية فحدثت في كندا في سنة ١٩٣٦ إذ قام بها الدكتور إ . ف . برتون ، وذلك في جامعة تورنتو حيث أنشأ أول جهاز من هذا النوع في أمريكا . وكان الدكتور ف . ك . زووريكين الموظف بشركة الراديو الأمريكية أول عالم اخترع الجهاز الكهربي التجاري الأول وركبه في الولايات المتحدة الأمريكية وذلك في سنة ١٩٤٠ . ويربى عدد المجاهر الكهربية المستعملة الآن في العالم على ١٥٠ جهازاً . وذلك في ميادين العلوم والصناعات . وكانت صلاحيته للمنافع التجارية احدى النتائج التي أسفرت عنها المباحث التي دارت في الراديو المصور « التلفزة » .

أما قاعدة ادارة هذا الجهاز فهي من المبادئ الإنقلابية من كل الوجوه ، في عالم الميكروسكوبات إذ لا تدخل في تركيبه عدسات زجاجية ولا تسلط عليه أشعة ضوئية . وإنما قوام (الرؤية) فيه ، موجات موجهة من الكهيربات تطلق بسرعة لا يصدّقها العقل بوساطة طاقة كهربية تبلغ ٥٠٠٠٠ فولط ، ثم تضاعفها المجالات المغنطيسية .

والمعروف أن أقصى قوّة التكبير للجهاز البصري هي ٢٠٠٠ مرة وذلك بحسب نوع الضوء نفسه أي وفق ما يسمح به طول الموجة الضوئية بأسرها ، ويمكن تكبيرها (المرئيات) أيضاً ولكن دون تكبير دقائقها .

أما طول موجة الكهيربات عند ما تطلق بسرعة عظيمة فتعادلها في الضوء ١٠٠٠٠٠ مرة . ومن ثمة تصير احتمالات التضخيم بها أكبر نسبيًّا . وهذا الجهاز هو في الواقع صمام كهيربي ضخم ، ويعد صنواً أكبر لصمامات الراديو الذي في دارك .

وفي ميدان علم الجراثيم يستعمل هذا الجهاز لمشاهدة البكتيريا وتصويرها ولكشف مصادر عدوى الأمراض التي تستحيل رؤيتها بالجهاز الضوئي المألوف . ذلك لأنها أدق جدًّا

مما يكشف بوساطته . كما يستعمل لدراسة تكوين البكتيريا والخلايا البشرية وغيرها من دقائق الأجسام ، التي لم تبصرها عين قط .

ومما يجدر ذكره بشأن استعمال المجهار الكهربي في الميدان التجاري ، أن صاحب مزرعة كبيرة لتربية المواشي في إقليم وآيومنج الواقع في غرب الولايات المتحدة الامريكية اقتنى حديثاً مجهاراً كهربيًّا ليتخذه وسيلة لاستكشاف خصب الثيران . ثم استخدم طبيباً بيطريًّا ليباشر هذه الدراسة قصد الوقوف على العوامل المختلفة التي تجعل بعض الثيران المخصابة المنتقاة ، التي يخيل لناظرها أنها أصلح ما تكون للغرض المطلوب منها فيخيب الظن فيها إذ يقلُّ نتاجها عن الثيران التي هي أحطّ منها .

وقد حذت حذوه شركة الأليومينيم الأمريكية فاستخدمت مجهاراً كهربيًّا لمراقبة منتجاتها ، ولمراجعة نماذج المواد وفحصها . وأتيح لشركة كبيرة للزيت المعدني أن تكشف بهذا المجهار أسباب انسداد مرشحاتها الضخمة وتوقفها عن عملها ، إذ تبيَّن بوساطته أن مصدر تعطيل هاتيك المرشحات هو افتقارها الى مفتاح محكم يتحكم في الحرارة .

وربَّ قائل يقول ، عقب اطلاعه على الصور الفوتوغرافية العجيبة التي تصوَّر بالمجهار الكهربي ، ونعني بها صور دقائق عوامل نقل الأمراض ، وأحجامها وأشكالها وتكوينها ، « ماذا عسى أن نستفيد من هذه جميعها ؟ ! » فنجيبه إن تلك الصور ، حيال الناظر إليها غير الفنيّ تشبه في غرابتها وغموضها ، مثيلاتها التي تُصوَّر بأشعة رنتجن . ولكنها عند العالم المتمرّن على « قراءة » الصور الفوتوغرافية العلمية ، نبراساً قويًّا ينير له غوامض مباحثه .

ومما لا ريب فيه أنّ اختراع الميكروسكوب البصري المعروف قد عبَّد الطريق لاكتشاف الجراثيم ودراستها ، ومنها الخاصة بأمراض التيفود والحمى الصفراء والملاريا والدفتيريا والسلّ التدرني . وهو الأمر الذي أفضى إلى علاجها واختراع اللقاحات التي تشفيها أو تمنعها . وهذا كلهُ يوضح لنا ماذا يرجى من المجهار الكهربي . ومثال ذلك البعوض ، وهو آفة عامة فإن هذا المجهار الجديد ، يبين لنا دقائق جسم البعوضة إذ يكبرها حتى تبلغ حجم قبة الكابيتول (١) فيتيح للباحث عن كثب فرصة رؤية التركيب الآلي

---

(١) مجلس نواب الولايات المتحدة الامريكية

المعقد لكل عضو من أعضاء البعوضة ووظائفه وتكوينه، فيسهل عليهم معرفة طريقة نقلها للأمراض وعدواها .

ولا غرو فالجهار الكهربي يضخم صورة القصبة الهوائية ليرقة البعوضة تضخيماً عظيماً جداً حتى تظهر دقائقها جلية كل الجلاء، وإن يكن حجمها الأصلي يقل كثيراً عن نصف جزء من مليون من عقدة الأصبع . فمن المعقول إذن ، من كل الوجوه ، أن نتوقع كون دراسة تلك التفصيلات ستميط لنا اللثام عن معلومات جديدة تؤول الى وقاية الأنام من غوائل البعوض القتال . وقد مكن الجهار الكهربي العلماء من اثبات إحدى نظرياتهم المحبوبة التي جالت في خواطرهم أحقاباً مديدة ونعني بها احتواء الجسم البشري على قوات دفاعية تدرأ عنه الجراثيم التي تهاجمه . وتسمى أعداء البكتيريا والفيروسات Virus (عوامل نقل العدوى) باكتيروفاج. ولم يكن في وسع العلماء دراسة هذه العوامل الدفاعية أو رؤيتها ، وان كانوا قد استطاعوا تخيل أشكالها ووظائفها . أما الآن فقد أصبح في مقدورهم الحصول على سلاسل رائعة من صورها الفوتوغرافية تمثلها سابحة في مجاري الدم ، ثم محتشدة فيه بغية مهاجمة القصيات «الباشلس» حيث يشاهدون الحرب الشعواء التي تنشب بين بعضها وبعض فلا تستغرق أكثر من عشر دقائق ثم تنتهي بهزيمة الجراثيم .

وفي خلال عشرين دقيقة يتمزق شملها وتتفكك أجزاؤها ثم تتحطم تحطيماً تامـّا . وذلك بعد انقضاء نصف ساعة . وحينئذٍ تتجلى صورتها الختامية كأنها انفجرت انفجاراً كاملاً إذ تتبدد ذراتها المحطمة منتشرة فوق ساحة الوغى . ويتيسر اتمام احدى هذه الصور في زمن يقل عن يوم فتقوم مقام جواب شافٍ ، هو الذي ظل رجال المباحث ، الطبية ينشدونه بلا فتور عشر سنوات .

ومن المكتشفات التي تكشفت بالجهار الكهربي فأحدثت انقلاباً في ميدان الزراعة تبيان فيروس مرض البرقشة « التبقيع » الذي ينتاب التبغ (الدخان) والذرة وقصب السكر ، إذ يظهر على أوراقها فيفسد محصولاتها فيخسر أربابها سنويّاً ملايين الجنيهات ، وقد غدا في امكان العلماء دراسة ذلك العدو الأزرق الذي يفسد الدخان ، دراسة محكمة إذ يتسنى لهم تحليل تركيبه ومعرفة تكوينه . وستكون الخطوة التالية التي سيخطونها هي

اختراع الوسيلة التي تقضي عليه قضاء مبرماً . (وقد علمت من المطلعين أن وزارة الزراعة المصرية ستقتني مجهراً كهربيًّا عما قريب لتستخدمه في مباحثها)

والمجهار الكهربي يكبر تيلة القطن الصغيرة جدًّا فيجعلها تظهر لنا طويلة كعمود المصباح. وهذا عدا إظهاره لتكوينها الداخلي . فيتبين الخبراء وجوهاً كثيرة بشأن سر صلاحية القطن وتفوّقه . وهي الصلاحية التي جعلته لاغنى عنه في شتى المرافق وأهمّها .

وبالمجهار الكهربي تيسر لأول مرة رسم ذرَّات الزبد التي توجد في اللبن الحليب ، لتسهيل فحصها ، وكذلك صار بحث أدق ذرَّات الصلب بحثاً صحيحاً أمراً ميسوراً ، بغية تقديم معلومات صحيحة إلى المهندسين ، وارشادهم الى تحسين أنواع المخاليط التي توجد لديهم منه . وهذا الى جانب تمكينهم من اختراع غيرها .

وفي ميدان العجائن الكيميائية ، يبين المجهار الكهربي للعلماء طريقة اتحاد جزيئين أو أكثر متشابهين من جزيئات المادّة لتكوين جسم مركب ذي جزيئات أثقل وخواص طبيعية مختلفة ، وان يكن مؤلفاً من العناصر نفسها بالنسب عينها . وهذه هي الوسيلة التي أتاحت تركيب أغلب العجائن الكيميائية المعروفة في هذا العهد .

ثم إنّ سناج الكربون ، وهو المادة العجيبة التي تمكن إطارات السيارات من قطع مسافات شاسعة تختلف بين ٣٥٠٠٠ ميل و ٥٠٠٠٠ ميل ، قد تمّت دراستها دراسة منتجة ، وذلك بالمجهار الكهربي . وقد تكشف للمهندسين الذين يدرسون الذرات الصغيرة ، الألفة العجيبة الكائنة بين المطاط وسناج الكربون . ثم أسفرت مباحثهم في هذا الموضوع عن استيقان ما يحتاج اليه لتركيب المطاط الصناعي ، فنجم عن هاتيك المعلومات ، جعل الكاوتشوك الصناعي يكاد يقوم مقام الطبيعي منه في أداء ما يستخدم فيه من الأغراض .

وبهذا الجهاز الحديث عينه صوّرت صور فتّانة للقتال الذي تدور رحاه بين الجراثيم والبنيسلين ، ومنها صورة تبين الجراثيم التي توجد في الصديد . وذلك في وضعها الطبيعي المضطرب ، وصورة أخرى التقطت عقب حقن الجسم بالبنيسلين وهي تمثل الجراثيم ممزقة شر ممزق .

× وما برح العلماء يهدفون إلى اتمام جهاز مساعد لهذا المجهار العصري ليكشف لهم

عن العناصر التي يؤلف منها كل نموذج يعرض لفحصه به . وقوام ذلك التحليل الكيميائي ، هو اختلاف سرعة الكهيربات في الذرات المختلفة الانواع . ويتنبأ مهندسو المجهار الكهيربي بتوسيع نطاق استعماله توسيعاً يشمل ميدان الزراعة فيصبح وسيلة لتحسين المزروعات وذلك بمعاونته للباحثين على كشف وسائل جديدة لمكافحة آفاتها وزيادة أحجام المنتجات وتكثير غلاتها .

ويؤكد كثير من العلماء وجود هرمونات (رسل كيميائية) ذات تأثير ثابت في نضج شخصية المرء أو قمعها . وأن المورثات « عوامل الوراثة » التي توجد في الخلايا الجنسية هي أيضاً عوامل نقل الميزات الوراثية . ثم يقولون : —

أما وقد أصبحت الجزيئات وربما الذرات أيضاً قريبة من حيز الرؤية البشرية ، فماذا عسى أن يحول دون مشاهدة هاتيك الهرمونات المورثات ثم دراستها . وهي التي تربط كل جيل بغيره ؟ !

فاذا حلّ ذلك العصر المرتقب الذي سوف نتمكن فيه من السيطرة على الوراثة والشخصية ، صار في وسعنا تجديد الجنس البشري تجديداً رائعاً . والمعروف من تاريخ اختراع هذا المجهار وتحسينه أنه منذ سنة ١٩٣٠ حدث تقدم عظيم في تحسين المجاهر الكهيربية في الدول المختلفة ولا سيما في المانيا إذ تبين للعلماء أن الكهيربات تسير في الصمامات المفرغة من الهواء في خطوط مستقيمة إلاّ اذا اعترضتها مجالات كهيربية أو مغنطيسية . وانه من الميسور جعل هاتيك المجالات تقوم مقام العدسات الزجاجية وتعمل عملها . وأن في نوع من المجاهر الكهيربية تنبعث تلك الكهيربات من فتيلة ساخنة ، كما هي الحال في صمام الراديو ، ثم تتنقل عاجلاً وتُركّز بمغنطيس على الشيء المراد فحصه (١) .

وبعد كتابة ما تقدم اطلعنا على نبذة في احدى المجلات العلمية الامريكية بعنوان (اختراع جديد يمكن المجهار الكهيربي من رؤية الدقائق التي لا يزيد حجم كل منها على جزء من

---

(١) وهذا ما قلته حرفياً في مقال على معجزات العلوم والفنون نشرته في مقتطف مارس سنة ١٩٤٦ تستطيع المجالات المغنطيسية والكهربية توجيه موجات الكهيربات الى أي صوب كما يتيسر لك توجيه المياه بخرطوم ري الحدائق الى أية ناحية تقصدها .

٥٠ بليوناً من عقدة الاصبع فرأينا أن نلحقها بهذا البحث مسرورين لأنها تحقق ما تكهن به العلماء وورد ذكره في هذا المقال وذلك في الفقرة المميزة بهذه العلامة × بصفحة ٣٥٩

قد تمت حديثاً زيادة قدرة الجهار الكهربي في تضخيم حجم المرئيات من مائة الف مرة الى أكثر من مائتي الف مرة وذلك بعدسة مغنطيسية محسنة اخترعها الدكتور جيمس Dr. James Hillier هيليار وبمعاونة زميله بري سميث ، وهما يعملان في معاهد المباحث العلمية الخاصة بشركة الراديو الأمريكية في برنستون باقليم نيوجرسي بالولايات المتحدة الأمريكية

وقد أعلنت هذه الخطوة العظيمة في سبيل فتح العالم الذي هو أحط من المرئيات الصغيرة جداً التي لا ترى بالعين المجردة . وقد تم هذا الاعلان برسالة علمية قدمها الى المعهد الامريكي لعلم الطبيعيات الدكتور هيليار ، ذكر فيها أنه قد نجح في تحسين العدسات المغنطيسية التي تركز الموجات الكهربية تركيزاً بالغاً من شأنه تسهيل تمييز الدقائق التي تنفصل عن الأجسام انفصالاً لا يزيد بعد كل منها عن الاخرى على جزء من خمسين بليون من عقدة الأصبع .

ورغم هذا الظفر العلمي العظيم فقد أوضح الدكتور هيليار أنه لايزال تجاهه معضلات فنية جمة تستوجب الحل قبل تعميم هذه الدرجة السامية من القدرة على التحليل لتصوير صورة جلية جامعة لدقائق المرئيات ونشرها بين العلماء أجمعين .

والمظنون أن للدقائق المؤلفة للجزيئات الكبيرة ، وكذلك تأثير العقاقير في البكتيريا ستكون من ضمن الأشياء التي سيكشف عنها اللثام فتتجلى للانام في مستقبل الأيام

ولا يخفى أن الصور الصحيحة التي تستطاع رؤيتها ونعني بها الصور الخاصة بتكوين الجزيئات ، ستفتح ميادين رحبة جديدة في الكيميا العضوية ، وهو العلم الذي حبانا بمواد النيلون والحرير الصناعي وغيرها من العجائب الكيميائية . كما أمدّنا بالمطاط الصناعي والعقاقير المنقذة للحياة . أما في ميدان الطب ، فمن المحقق أن معلوماتنا الجديدة الخاصّة بالتكوين الدقيق للفيروسات (عوامل نقل عدوى الأمراض) والخلايا الحية ستساعدنا مساعدة جليلة على استئصال ذينك الداءين اللذين لم نتغلب عليهما حتى الآن ، وهما شلل الاطفال والسرطان . ولا محيص قبل ختم هذا البحث من وصف أجزاء هذا المجهر الجبار

وطريقة استعماله فنقول إن مصدر الاضاءة في المجهر الكهربي ، قطب كهربي سلبي ساخن تنبعث منه كهيربات فتمرّ هذه الكهيربات بقطب ايجابي في وسطه ثقب صغير . ويشحن هذا القطب بكهربا ايجابيـة تعجل مسير هاتيك الكهيربات . وفي المجهار لفة سلك على شكل دائرة جوفاء تولد مجالاً مغنطيسيًّا يقوم بحني مجاري هاتيك الكهيربات حنياً يصيرها كشعاعة موازية للجسم المراد فحصه فتسلط عليه فتخترق الاشعة الكهربية ذلك الجسم اختراقاً يتفاوت بحسب تكوينه ، حيث يقوم مجال مغنطيسي آخر بحشدها في بؤرة واحدة فتتكوّن صورة مكبّرة ، ثمّ إن الأشعة الكهربية ، التي تؤلف جزءاً من تلك الصورة يتم تكبيرها أيضاً بالمجال المغنطيسي الثالث فتتكوّن منها صورة مكبرة أيضاً. فيتبين من هذا أنّ المغنطيسات الكهربية الثلاثة تقوم مقام العدسات في المجهار البصري . ولذا تسمى بالعدسات المغنطيسية. ولكن هذه العدسات المغنطيسية لا يمكن تحريكها كما تحرك العدسات الزجاجية ، بل يتاح إحداث التأثير المقصود منها بتغيير التيار . والصورة المكبرة في المجهار الكهربي تؤلف بشعاعة كهربية خفية، يتسنى إظهارها بحجاب متألق يتلقاها . أما الصور الفوتوغرافية فتصنع بجعل الشعاعة الكهربية تسقط سقوطاً مباشراً على لوح فوتوغرافي . ولما كانت الشعاعة الكهربية لا تؤدي عملها إلاَّ في أنبوب مفرغ من الهواء فلا بدّ من وضع الجسم المراد فحصه بالمجهار الكهربي في فجوة ملائمة له في المجهار ثم إغلاقه عليه مع تفريغ الفجوة من الهواء . ومن الميسور إنجاز هذه الأعمال جميعها في ١٠٠ ثانية وذلك باستعمال المجهار الكهربي العام الذي تصنعه شركة الراديو الأمريكية .R. C. A من طراز EMU - إـام ـيو فينجم عن ذلك أن الدقائق التي تقل أحجامها عن جزء من مليون من عقدة الاصبع تسهل رؤيتها .

عوض جبري

استدراك

وقع في المقال الخاص بالدكتافون المنشور في الجزء السابق من المقتطف خطأ مطبعي لم يتح لنا التنبيه عليه في حينه وهو ، وجوب حذف الجملة الآتية وذلك في سياق الكلام في العمود الاول من ص ٢٩٩ وها هي ذي : —

« فيقوم التليفون مقام بوقه حينما توضع السماعة في موضعها » فيستقيم المعنى ويزول الغموض .

مكتبة المقتطف

الطب العربي

مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به تأليف الدكتور أمين أسعد خير الله
أستاذ الجراحة في الجامعة الامريكية في بيروت — ٢٧٤ صفحة من القطع الكبير : بيروت ١٩٤٦

كتابٌ من الكتب الجامعة في هذا الباب ، وضع مقدمته المرحوم علي ابراهيم باشا جرّاح مصر الأول عليه رحمة الله فقال إن هذا الكتاب قد وعى تاريخ الطب في مصر والشرق كله وتضمَّن المعرفة الطبية منذ كان العرب في الجاهلية الأولى ثم في صدر الإسلام من عهد الخلفاء الراشدين ، وتوسع في الطب العربي ومؤرخيه ، وكشف عمَّا خطه العرب وما ترجموه .

ولقد ألّف هذا الكتاب باللغة الانجليزية ونشر بها ، فترجمه دكتور من الفضلاء هو الدكتور مصطفى أبو عز الدين ووضع للترجمة مقدمة هي على إيجازها للتّعريف بمثل هذا العمل الكبير تدل أقوى دلالة على تعرف ما كان للعرب من أثر في العلوم عامة وعلم الطب خاصة . فمن ذلك مثلاً أن ابن الهيثم كان أول من قال بأن شبكية العين هي مركز المرئيات التي تنقل منها الى الدماغ بواسطة عصب البصر ، وإن وحدة الصورة من الباصرتين تعود إلى تماثلها في الشبكيتين . واكتشف ابن النفيس الدّورة الدّموية الرئوية قبل سرفيتوس بمئتين وخمسين سنة ، ووصف مجيء الدّم فاسداً الى القلب ومنه الى الرئة حيث يختلط بالهواء ثم يعود الى القلب نقيًّا ليوزعه على الجسم . وعلي بن عباس المجوسي سبق هارفي بمئات السنين إلى كتابة أقرب وصف للدورة الدموية في الأوعية الشعرية . وأبو القاسم الجرّاح العربي المشهور والمعروف بالزهراوي استعمل ربط الشرايين قبل إمبرواز بياري بأجيال وهو نفسه وصف داء الهيموفيليا وقال إنه « عائلي » . وكان أطباء العرب أول من قال بانتقال الأمراض السارية بواسطة المخالطة .

على أننا أحوج ما نكون في هذا العصر الى معرفة تاريخنا . ولقد تغير فهم التاريخ في العصر الحديث فانتقل معنا من مجرّد رواية الأحداث الى تحليل الحياة العقلية والاجتماعية وتفهّم أسبابها ونتائجها وعلاقتها بالحاضر والمستقبل . ولا شك عندي أنّ هذا الكتاب من دعامات التاريخ المثلى في تاريخ العربية .

قصة النزاع بين الدين والفلسفة

تأليف الدكتور توفيق الطويل مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول :
٢٦٩ صفحة من القطع الكبير : ١٩٤٧ القاهرة

انقسم المؤرخون قسمين : أحدهما يرى أن لا نزاع بين الدين والفلسفة وعمدتهم في ذلك أن اللاّهوت هو الذي ينازع الفلسفة ، أما جوهر الدين فلا . وثانيهما يقول بأن الدين واللاهوت كليهما ينازع الفلسفة . ولعلّ السبب في ذلك عدم تحديد المقصود بكلمة « فلسفة » وكذلك عدم تحديد المقصود بكلمة « دين » . ولا شك أنه من أصعب الأمور تحديد المفهومين تحديداً جامعاً يقيم البحث في تنازعهما على قاعدة ذات حدود وروابط يأتم بها المؤرخ أو الناقد . ومن حيث بدأت البحث في ذلك الأمر انتهيت الى فكرة غامضة في دلالة المفهومين : مفهوم الفلسفة ومفهوم الدين . وإذن تكون مهمة المؤرخ الذي يتصدّى للكلام في تاريخ ذلك الصّراع إنه لا يجعل همه في التعريف بل في الاثبات والتقرير ، واستخلاص الفكرة العامة في ذلك من مقتضى الواقع ، لا من مقتضى الدلالة التي تتحيز في ذهنه من معنى الفلسفة ومن معنى الدين .

ما من شك في أن هنالك صراعاً وقع بين الفلسفة والدين. وما من شك في أن ذلك الصراع قد توالت عليه ألوان من العقيدة والفكرة والتقيد والتحرر ، والحقيقة والخيال ، والاثبات والنقض ، وتوالته قوًى كثيرة هذه جاذبة وتلك دافعة ، وهي حيناً حارة مضرمة ، وحيناً هادئة باردة الانفاس . ولعلي لا أكون مخطئاً خطأً كبيراً إذا قلت أن السبب في ذلك هو ذلك التنوح الفكري الذي ظل يمايل العقل الانساني حيناً الى ناحية الفلسفة ، وحيناً إلى ناحية الدين . فكثيراً ما خرجت من بحوث الفلسفة نزعات دينية ، وكثيراً ما خرجت بحوث الدين عن مذاهب فلسفية . ومرجع ذلك ومآله هو لدى الحقيقة العقل البشري ونزعات النفس وتأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية خاصة في رسم الطريق الذي ينتحيه الفكر . واني لعلى يقين من أن المذهب الذي أذهب اليه في هذه الناحية صحيح في مجموعه ، وهو

عندي أن درس مثل هذه الأشياء وبخاصة ظواهر الصراع بين ناحيتين من نواحي الحياة الانسانية كالدين والفلسفة ، ينبغي أن يخضع أول شيء لتحليل العوامل المحيطة بالانسان في عصر من العصور وبخاصة عوامل الاجتماع والاقتصاد وما يعتورها من مظاهر عقلية ومادية . فقد نرى مثلاً أن نبلاء فرنسا قبيل ثورتها الكبرى كانوا ملاحدة نزاعين الى التحرر الفكري ، فحمي وطيس النزاع بين الدين والفلسفة ، فلما دهمتهم الثورة بويلاتها وأخرجتهم من ملكوتهم ونزعت عنهم امتيازاتهم ، ارتدوا مؤمنين بالله واليوم الآخر ، وأموا الكنائس يلتمسون من جدرانها السلوى والمغفرة .

قد يكون هذا المذهب في واقع الأمر هو المذهب الايجابي في تحليل حقيقة الصرع بين الدين والفلسفة ، ولن نستطيع ان نصل الى الأسباب الحقيقة في اضطرام هذا الصراع حيناً ، وهدوئه حيناً آخر ، من غير أن نرجع الى الملابسات الاجتماعية والاقتصادية .

الكتاب الذي نحن بصدده من الكتب التي نحتاج اليها كل الاحتياج ، وقد رتبه مؤلفه الفاضل بحسب العصور ، وحصر كل همه في رواية الوقائع وقصها ، ولعله يوافقنا على مذهبنا الذي نذهب اليه في كتابة هذا التاريخ ، ولعلنا نفوز منه برأي فيه

الآداب السامية

مع بحث مستفيض عن اللغة العربية وخصائصها وثروتها وأسرار جمالها ، تأليف الاستاذ محمد عطيه الابراشي المفتش العام بوزارة المعارف : ٢٥٨ صفحة من القطع الكبير : ١٩٤٦ : القاهرة

تقصَّى الأستاذ الفاضل مؤلف هذا الكتاب نشوء اللغات السامية فبدأ بتعريف شامل لما يعنى الكتاب من اللغات الساميَّة ، وعقب على ذلك بالكلام في فروع الأصل اللغوي السامي فعقد فصلاً في اللغة العبرية وعقب عليه بفصول في الفنيقية والارامية والسريانية ، ثم تخلص من ذلك إلى الكلام في العرب واللغة العربية . ولعلَّ أعظم ناحية من نواحي الكتاب هو اتباع الطريقة المثلى في هذه البحوث وهي الطريقة التاريخية التي تظهرك على تسلسل الأسباب وتتالي الصور في انسجام كامل ، يخلق في الذهن فكرة عامة عن موضوع البحث . ولقد قرأت ذلك الكتاب على بعد موضوعه عن دراستي الخاصة ، فاذا بي في صميم آداب العربية ، أربط بين أجزائها وأوفق بين ما تنافر منها ، فأخرج من جُمَّاع ذلك بتصور صحيح في أصل لغتنا العربية المجيدة والكثير من خصائصها التي أضفت عليها من الجمال والقوة ما يجعلها في طليعة لغات العالم كله .

تاريخ العصر الحاضر

تأليف رفيق التميمي — يافا — فلسطين

مؤلف مدرسي لطلاب الثانويّة ، جرى فيه مؤلفه على الطريقة الحديثة في وضع كتب التاريخ وأقصد بالطريقة الحديثة طريقة القصص التاريخي الملائم لتكوين فكرة عن الحالات السياسية التي تقوم في الأزمنة والأمكنة المختلفة ، قاصرة على تاريخ العرب والانعطاف نحو تاريخ الشرق إذا جدّت حاجة الى ذلك . ولكن المؤلف قد أدرك ذلك النقص الذي يبدو جليًّا في كل المؤلفات المدرسية الحديثة ، فعقد فصلاً ممتعاً في « نهضة العرب في القرن العشرين » « وآخر في الحركة الفكرية في العصر الحاضر » فأكمل بذلك نقصاً نأنسه في كثير من الكتب التي يدرس عليها الطلبة في معاهدنا . ولعلنا نستطيع بعد قليل ان ندخل في مادة التاريخ عما قريب تاريخ التغاير الاجتماعي والاقتصادي ، وتفسير الاحداث الجارية بمقتضى ذلك فنخلص الى جوهر التاريخ ولُبَابه ونترك قشوره وظواهره .

أحلام الربيع

من شعراء الحجاز المحدثين المجيدين الأستاذ طاهر زمخشري وقد أخرج أخيراً ديوان « أحلام الربيع » طاقة من الورد جمعت من كل لون زهرة .

ففي الديوان تحية الملكين فاروق وعبد العزيز عند اجتماعهما في رضوى وفي القاهرة ، وتحية لعاهل الجزيرة بعنوان « عودة الصقر » عند اجتماعه بالقطبين السياسيين روزفلت وتشرشل ، وقصائد شتى فاضت بها قريحة الشاعر في مناسبات متباينة .

وأبرز صفة في الشاعر الزمخشري حبه للسهولة غير المتكلفة واجتنابه للجفو من الكلام وإيثاره المعاني السافرة عن المعاني المستترة .

وديوان « أحلام الربيع » من أول دواوين الشعر الحديث في الحجاز التي عرفت طريقها الى المطبعة ولم يسبقه من قبل سوى بضعة دواوين تكاد لقلتها تعد على الأصابع .

وأهدى الشاعر الزمخشري ديوانه لسعادة الدكتور محمد حسين هيكل باشا « من بناة النهضة الفكرية في مصر والشرق العربي » كثمرة من ثمار تشجيعه وزهرة من الزهرات التي تعهدها بالرعاية اعترافاً له بالجميل .

وقد صدّر هذا الديوان بمقدمة نفيسة للشاعر المصري الأستاذ حسن كامل الصيرفي أوضح فيها مميزات صاحب الديوان .

١ — الله

للاستاذ عباس محمود العقاد — صفحاته ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير طبع بمطبعة دار المعارف بمصر

آية جديدة على ما بلغه من الذهن العبقري من النضج ، والتفوق ، تتجلى في هذا المجهود الجبار ، الخصب ، الذي يقدمه — المؤلف — في حلبة الآثار العقلية ، الخالدة ، عن بارىء الكون ، ومدبر العالم ، ومبدع الكائنات ، فقد تناول فيه هذا الجانب المذكور في الطبيعة البشرية . والذي يمكن أن يطلق عليه الوعي الالهي . بالدراسة المستوفاة ، والبحث العميق ، فالانسان مزود بهذه الحاسة الوجدانية التي تنهض على الإيمان الفطري بخالق الانسانية ، فليس عمل الأديان إزاء هذا الوعي بالعمل الخالق له ، بل هو بمثابة الغذاء الذي يتطلبه الكائن الحي ، وتطوره ، وإكتماله ، فالتدين غريزة في كيان الشخصية الانسانية ، ولكن هذه الغريزة قد لبثت الدهور . وهي تتخذ مظاهر ساذجة ، بدائية ، مسايرة للحياة العامة في مختلف ألوانها حتى بلغت أوج حيويتها عندما تهيأت لاستقبال آخر رسالة من قبل السماء : فعصور الوثنية ، وفترات التوجس من بداوات الطبيعة لم تخل من التدين ، بل كل هذه أثواب كانت ترتديها تلك الغريزة ، والذي يجرد ، أو يحاول تجريد الانسان في ثنايا تلك الحقب من التدين يتجنى على الحقيقة ، ويخطئه توخي الانصاف ، والأستاذ — العقاد — قد إتكأ على أمتن دعامة عندما رجع بهذه الظاهرة إلى أصولها ، وتتبعها في منابتها الأولى ، ثم أخذ يسايرها في شتى صورها عند البدائيين ، والفلاسفة وفي الشرائع السماوية ، وأخذ يعرض تلك الصور التي إستطاع العقل في طفولته ، وشبابه أن يتمثلها عن — الله — ويناقشها في دقة وفهم ، ومقدرة ، ويفصل في لباقة بين الجواهر ، والأعراض واللباب والقشور ، وما أكثر ما استنفدت هذه المشكلة من قوى المفكرين الذين استخدموا العقل ، وتذرعوا بالمنطق ، أو من هؤلاء الذين احتكموا إلى الوجدان ، واستجابوا للعاطفة والكل يجهد في تدعيم الصورة التي هدته إليها تجاربه الفكرية ، أو ألهمته إياها عاطفته الدينية المشبوبة ، ولكن ستظل وراء هذه المجادلات الشكلية ، وبعد هذه الخلافات العرضية حقيقة لا يمكن جحدها ، ولا سبيل إلى نسيانها ، أو تجاهلها ، وهي شعور الانسان الفطري بأن هناك قوًى فوق طاقة العقل تمثلها ، ومعرفة كنهها ، تسيطر على الكائنات ، وتدبرها ، وفق قانون ثابت ، مطرد حكيم ، هذا بعض ما انتهى تقريره بالمنطق الحكيم ، الأستاذ — العقاد — والإيمان مرده إلى الوجدان ، والشعور ، وما عمل العقل إلاّ التفرقة بين الباطل والصحيح ، والزائف ، والسليم ، فليس العقل هو الذي يوجد الإيمان بل هو يقويه

ويدحمه عن طريق العقل ، ويبعد عنه الشوائب فلا ضير ، إزاء هذه الحقيقة، على كينونة الدين من تقدم الفكر ونشاطه ، هذا التقدم الرائع ، ما دام لكل ميدانه ، ومجاله ، ورسالته ، وأن هذه الدعايات المأفونة التي تذهب إلى أن المذاهب الاجتماعية يمكن أن تحل محل الأديان ، وتؤدي عملها ، وأن التقدم كفيل بمحو الأديان . فرية باطلة ، لا سند لها ، ولا بقاء ، ومهما كان من تفوق العقل وإزدهار العلم ، فهو يقوي العقيدة ، ويفلسف الإيمان ، لا أن ينال منه ، كل هذه الشبه ، وأمثالها ، قد تعرّض لها الاستاذ — العقاد — وفندها ، وردها إلى ما يجب أن تنتهي اليه ، فكم من فلاسفة ، ومفكرين ، نازلهم الاستاذ ، واستطاع أن يأخذ منهم قصب السبق وأن يديل من أيديهم الحجة فكانت آية على جبروت هذا العقل الجبار ، الذي اقتحم هذا السبيل الذي تكثر أشواكه ، ومزالقه ، بقدم ثابتة ، وجنان يقظ ، وقلب ثابت ، وهو طريق يثير اشفاق الكثيرين ويملأ قلوبهم رعباً ، وأفئدتهم هولاً ، فيتقونه ، وينأون عنه ، ولكن هذا المفكر الجسور ، قد ضرب في أنحائه ، وجاب معالمه ، وقدم ما يجمل أن يقدم من ثماره ، ولعلّ في عمل هذا الرائد ما يمهد السبيل الى اكتشاف ما يستتر في باطنه من كنوز ينتفع بها في حياتنا الدينيـة ، والعقلية ، وفي تاريخنا لفكرة التدين ، وإبراز الألوان التي استطاع العقل أن يخلعها على — الإله — وعلى أي الصور تسنى له أن يتمثله ؟ فهي مراحل مغرية ، مشوّقة ، تستهوي اللب وتستلفت الخاطر ، والكتاب يجب أن يقرأه كل مثقف ، ليرى خلاصة مركزة لتلك المجهودات التي أنفقت العصور ، والأعمار في سبيلها ، وينال ما يستحقه من عناية العلماء ، والباحثين من دراسة ، وتعليق ، وأن يستقبل بما هو أهل له ، فهو عصارة ما بذلته البشرية حيال هذا السر العظيم ، ودراسات لنظريات الفلاسفة ، وآراء المفكرين ، واستعراض لكل ما يدور في هذا المجال ، وهو من حيث الدراسة . فهو يحمل طابع الاستاذ — العقاد — وخصائص ذهنه ، من حيث دقة بحثه ، واستيفاء أطراف موضوعه ، وقوة شخصيته ، وعنفوانها ، وأنها تروعك بجبروتها . مهما كانت الشخصية التي بجوارها ، هذه كلمة عابرة في هذا الكتاب الذي آمل أن يقابل بما هو خليق به من الدراسة ، والعناية .

٢ — الموازنة بين الطائيين للآمدي

شرح وضبط وتعليق للشيخ محمد محي الدين عبد الحميد

الاستاذ محي الدين من الشخصيات العلمية ، القلائل التي وهبت كل حياتها ، سخية ، جوادة ، للعلم ، والبحث ، والدراسة ، والتأليف ، في هدوء ، وصمت بعيدة عن

ضجة الاعلان ، غير آبهة بألوان الدعاية ، تاركة لوجودها ، وأعمالها ، أن تنطق بأروع بيان وتجلجل في مسامع العصر ، مفوضة إلى التاريخ — وهو أحكم الحاكمين — تقدير انتاجها ، وانصافها ، فلو أننا نعيش في بيئة تزن الأعمال بالقسطاس المستقيم ، لكان لهذا العالم الثبت ما له في هذا الجو الذي تطفو على سطحه كثير من الفقاقيع ، فلقد زود هـذا الجيل بأزواد تنوء بها المجامع الضخمة ، وهو متعدد النواحي العلمية ، من أدبية ، وتاريخيـة ، ولغوية ، واسلامية ، عميقها ، يجول في ميادينها بقدم ثابتة ، وذهن قوي ، وحسبه أنه قد تولى هذا التراث النحوي الذي تركته العصور ، وهو أشد ما يكون اضطراباً ، مما جعل مهمة الدارس له غاية في المشقة ، والعسر ، حتى كاد اليأس من الانتفاع بهذه الذخائر يقضي على كل شيء ، فأولاها عنايته ، وأوقف عليها نشاطه حتى استطاع أن ينثني وقد أخرجهـا جميعاً في أبهى حلة من الإخراج العلمي والتنظيم والتبويب ، والفهـارس مما كان له أجل الأثر في المعـاهد والجامعات التي تتولى تلك الدراسات العربية ، وقد عزّ عليه أن يرى كتب الفقه الاسلامي تعاني تلك العلل التي يعرفها كل من تصدى للدراسات الفقهية فأخذ في إصلاحها ، وتهذيبها ، وتقريبها إلى الأفهام ، ولو ذهبت أعدّد ما قام به ، ويقوم من تلك المجهودات لطال بي القول. وحسبه أنه أصبح يتفرد بمكتبة من انتاجه ، واخراجه وهو عالم ضليع ، واسع الاطلاع عميقه ، وأديب ممتـاز له ذوقه ، وفهمه ، وبصره في النقد الأدبي ، وهو جزل الأسلوب ، متين العبـارة ، غير أنه يرى أن هـذه الكتب وهي كل تراثنا أولى بالجهود لإصلاح ما يعتورها من اضطراب ، ويشيع فيها من خطأ جرّه عليها اجحاف عصور الظلم والركود ، وتزيده تمسكاً بهذه العقيدة عدم توافر الجهود اللازمة في هـذا الميدان ، فهو يؤثر دائماً هذا الميدان على غيره ، لأن في إحياء هـذه الآثار ، ورد عادية البلى عن حماها ، نوع من التجديد والمساهمة ، والـكتاب الذي نحن بصدده من أهم الـكتب التي عنيت بالنقد الأدبي ، فهو يدور حول شاعرية شاعرين من فحول شعراء الأدب العربي ، وهما : أبو تمام ، والبحتري ، فيتناول مواضع الجودة وينبه على مواطن الضعف في آثارهما ، ويحاول أن يبين كل ذلك فالـكتاب له قيمته من حيث هو يؤرخ مرحلة من مراحل تطور النقد عنـد العرب ، ويبصر الناشىء مواطن الجودة ، ومآخذ الضعف ، ويعين على تذوق الأدب ، وهذا — الـكتاب يعد من أمهات الـكتب في هذا النوع غير أنه كان يعاني ذلك الداء الخامر الذي يطغى على أمثـال هذه الآثار من التحريف والتشويه ، والاضطراب ، ممـا يحول بينها وبين الانتفاع بهـا في سهولة ، ويسر ، فاستطاع الأستاذ الفاضل — أن ينقي ما فيه من الشوائب ، ويخلصه من الأغلاط ، ويصلح ما فيه من فساد ، ويبوّبه ، ويتسوقه ، ويضع له الفهـارس ، ويخرجه

إخراجاً علميًّا ، دقيقاً ، فهد السبيل للانتفاع بهذا المورد المذب في النقد الأدبي وهي رسالة لا يضطلع بهـا إلاّ هؤلاء الذين أتيحت لهم ثقافة ، شاملة ، مركزة ، ورزقوا من الصبر ما يعينهم على هـذه المجهودات ، ومن الاخلاص للعلم ، ما يحبب إليهم كل صعب في سبيل تأدية رسالتهم وكل هذه الخلال يتحلى بها هذا الأستاذ المخلص ، وفقه الله لخدمة العلم ، والنهوض برسالة العلماء .

محمد عبد الحليم ابو زيد

١ — مصر الظافرة

١٣٠ صفحة من قطع المقتطف — المطبعة الاميرية ببولاق

البكباشي عبد الرحمن زكي مدير المتحف الحربي أديب أغنى المكتبة العربية في ناحية كانت هي فقيرة فيها فأنشأ ثقافة عسكرية مزج فيها بين الأدب والتاريخ والفنون العسكرية ولم يقف به نشاطه عند العمل في حدود عمله العسكري من تكوين مكتبة عسكرية وإدارة مجلة للجيش وتنظيم المتحف الحربي وتقوية روح التأليف والكتابة بين رجال الجيش وتحبيب المطالعة للجنود . فهو ما ينفك بين حين وآخر ينفح المكتبة العربية بأثر جديد له .

وقد أصدر أخيراً الطبعة الثانية من كتابه « مصر الظافرة » وهو صفحة من تاريخ مصر القومي ، استعرض فيها حقب التاريخ كما يستعرض موكباً من المواكب اجتمعت فيه ألوان شتى من تاريخ مصر الفرعونية حتى العصر الحديث وذلك في عرض شائق وأسلوب جميل .

والكتاب بالرغم من صغر حجمه وضخامة الموضوع الذي تناوله مؤلفه الفاضل ، قد استوفى الموضوع حقه من الأداء فلم يخل ايجازه بشيء من صور التاريخ المصري عصراً فعصراً . وهذا الموضوع يتصدى له خبير به فيحسن تصويره ويلم بشتاته ويعرض للقارىء صفحة هي بحق جديرة بما توج به الكتاب بالكلمة الذهبية للمغفور له الملك فؤاد الاول وهي « ستكون مفاخر ماضينا وتراثنا الخالد خير عون لنا في بعث وطننا من جديد ، وفي التقدم به نحو الكمال الانساني ، ذلك الكمال الذي ظلّ — على تناحر الشعوب واختلاف الفلاسفة في جميع الأقطار والأزمان — مذ كان أرسطو حتى تولستوي — حلم العصور الكثيرة المتعاقبة ، والمنارة اللامعة المغرية في آفاق البشرية السامية »

٢ — صحيفة البلاد السعودية

كان لليقظة التي بعثها العاهل العظيم جلالة الملك عبد العزيز آل سعود في الجزيرة العربية أثرها في كل منحى من المناحي عمرانية أو ثقافية ... وآية ذلك تلك النهضة القوية التي تبدو آثارها فيما ينتج أدباء الجزيرة في هذه الآونة .

ولقد نهضت الصحافة هناك في عصره نهضة تبشر برقي ، وإسراع في هذا الرقي . فهناك من الصحف الآن ما تضارع صحف البلاد العربية الأخرى ، ولها من الرسالة التثقيفية ما يدعو الى الاعجاب . وفي مقدمة هذه الصحف صحيفتان إحداهما شهرية وهي «المنهل» التي يصدرها الأستاذ عبد القدوس الانصاري — وقد سبق أن نوهت بها في هذه المجلة — والأخرى «صحيفة البلاد السعودية» وتصدر يوم الاثنين من كل أسبوع في حجم الجرائد اليومية . ويتولى إصدارها الشركة العربية للطبع والنشر ويرؤس تحريرها أديب ممتاز الذهنية رقيق الأسلوب قوي التعبير هو الأستاذ عبد الله عريف يعاونه في ذلك فريق كبير من أدباء الجزيرة العربية البارزين من أمثال الأساتذة احمد عبد الغفور عطا ومحمد حسن عواد وطاهر زمخشري وحسين عرب وحسين سرحان ومحمد حسن فقي والأنصاري وحسن عبد الله القرشي وعزيز ضيا وغير هؤلاء ممن يحملون علم النهضة الأدبية في الحجاز .

وقد أصدرت هذه الصحيفة بمناسبة دخولها في سنتها الثانية عشرة عدداً ممتازاً في طباعته الملونة وفي إخراجه وفي موضوعاته وقصائده ضمّ الكثير من نتاج من ذكرنا من هؤلاء الأدباء الأفاضل ومن كثيرين غيرهم ، وقد توّج بكلمة لحضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله الفضيل ، وازدان بكلمات لحضرات أصحاب السعادة الأساتذة محمد سرور الصبان وعبد الرؤوف الصبان والشيخ ابراهيم السليمان وفضيلتي الشيخ محمد بن نافع والسيد صالح شطا والأمير الاي علي بك جميل .... وانها لنهضة مباركة يرجع الفضل فيها الى الجهود التي بذلها عاهل الجزيرة العظيم وآل البيت السعودي الكريم الذين يحتضنون النهضة الفكرية ويعملون على رفع منارها وإعادة الحياة الأدبية إلى الجزيرة كما كانت في أزهى عصورها .

الصيرفي

اختزال واكد

وضع حضرة الأستاذ فؤاد واكد رئيس قسم الاختزال بمجلس النواب المصري كتاباً يتضمن شرحاً وافياً للطريقة التي ابتدعها للاختزال باللغة العربية بعد ما درس طرق الاختزال باللغة الانجليزية وألم الماماً تاماً بكيفية تبسيط هذا العلم واستعماله في سهولة ويسر .

ويقول الأستاذ واكد أن ما حفزه إلى إخراج هذا الكتاب هو ما تبينه من افتقار اللغة العربية إلى مثيل له يسهل تداوله والاعتماد عليه في درس هذا الفن .

١ – أشواك

للاستاذ سيد قطب

دار سعد مصر — ١٤٨ صفحة من الحجم المتوسط

لم أكد أفرغ من تلاوة قصة أشواك التي صدرت أخيراً للأستاذ سيد قطب حتى تناولت قصة « سارة » للاستاذ عباس محمود العقاد ، لأن مشابهة ملحوظة بين القصتين استوقفت نظري . فالقصتان على ما يتضح من سياقهما مستمدتان من حياة كاتبيهما . وموضوع كل منهما يكاد يكون واحداً ، فمحوره أن شابًّا يحب فتاة فتبدي له الفتاة من التدله والصدّ ما يقطع الصلة بين العاشقين .

ولم يسترع انتباهي تشابه موضوع القصتين وحده ، بل راعني فضلاً عن ذلك تقارب جليّ في تخيّر عنوانات الفصول في كل من الروايتين . فبينما يعنون العقاد فصلاً « بشكوك » يعنون قطب فصلاً « بأشواك » . وبينما يتخذ الأول العنوانات التاليـة « وكان صباح » و « مضحكات الرقابة » و « من هي » و « القطيعة » يتخذ الثـاني العنوانات التالية « موعد » « سخريات » و « أنثى » و « القطيعة » وجليّ أن المعاني تتقارب وإن تباعدت الألفاظ شيئاً ما .

ولا أريد أن يؤخذ كلامي على أن الأستاذ قطب نقل من الأستاذ العقاد ، فلكل منهما طريقته الخاصة في الكتابة وفي معالجة « تجربة الحياة » التي عرضت له ، لكل منهما أسلوب خاص في معاملة المرأة سواء كان ذلك في حياة الواقع ، أو دنيا الخيال والتصور ، ولـكن هذا التشابه فرض نفسه عليّ فرضاً رغم الشقة الفسيحة بين زمن قراءة كل من هاتين الروايتين .

واستوقف نظري في قصة الأستاذ قطب شيء من التحرر من التقاليد التي تواضعت عليها العائلة المصرية . ومن ذلك مثلاً أن بطل روايته خطب لنفسه فتاة ، فكانت هذه المزيـة تؤهله لأن يقتحم عليها حجرة نومها ويفجأها وهي أدنى إلى العري منها الى الستر ، وكانت تخوّل له أن يبيت في دارها دون أن يعترض والداها على ذلك ، وكانت تبيح له أن ينفرد بها في ممر الدار ويعتصرها اعتصاراً ويرشف منها ما شاء من رحيقها المذخور . بل إنه ، حتى بعد أن قطع كل صلة بها ذهب إلى دارها فدهش جميع الذين كانوا فيها ولم تحل دهشتهم هـذه دون أن يختلي الخطيب السابق بخطيبته السابقة بعـد استئذان أهلها ، ليفاتحها في موضوع حلم حلمة يتعلق بأخص خصائص المرأة .

وفي رأيي أن القاصّ اندفع بعض اندفاع في إعداد هذه المواقف لأنه لو تحرّى مطابقة قصته للواقع المألوف لتجنب هذه الأخطاء .

وبعد فالقصة لا تفتقر إلى عنصر التشويق ، وإلى الظلال ، فهي حافلة بهما ، ولعلّ خاتمتها « الحالمة » أجمل ما فيها لأنها تعرض لنا فكرة جديدة هي « الأبوّة التصورية » أي أن يخال رجل نفسه أباً لطفل ليس من صلبه .

٢ — جرائم واغتيالات القرن العشرين

للأستاذ عبد الحليم الجندي

الجزء الثاني — دار سعد مصر — ١٦٠ صفحة متوسطة

أصدر الأستاذ عبدالحليم الجندي المحامي بأقلام قضايا الحكومة كتاباً من جزأين عنوانه « جرائم واغتيالات القرن العشرين » تحدث في الجزء الأول عن ابراهيم الهلباوي بك أول نقيب للمحاماة في مصر وتناول في السفر الثاني حياة محاميين بريطاني وفرنسي تضلّعا من فنّهما وتميّزا على أقرانهما بما وهبا من استعدادٍ فطريّ لمراس المحاماة ، كأن مهنة المرافعة لم تخلق إلاّ لهما .

والسكسوني هو مارشال هول ، وهو معروف للمصريين بدفاعه الجبار في قضية مقتل الوجيه علي فهمي بيد زوجته الفرنسية مرجريت فهمي ، وقد استطاع بقوة حجته وتحايله على الحقائق واختلاقه أموراً لا نصيب لها من الصحة أن ينقذ موكلته مرجريت من المقصلة مع ثبوت جرمها ومغالاة القانون في عقاب مقترف جريمة القتل .

كان رجلاً يناضل المقادير بل ويوجهها حسبما يشاء ، فقد كان في طاقته أن ينتزع من بين براثن الموت متهمين ثبت جرمهم واعترفوا بإثمهم على الملأ ، أو كما قال الأستاذ الجندي « كان يستخرج القاتل من القفص ليستجوبه كشاهد لا كمتهم ! »

بعثت إليه معجبة به رسالة تثني فيها عليه وترجوه أن يوافيها بصورة « أكبر المحامين رشاقة وعبقرية » فما كان منه إلاّ ان بعث إليها مزجياً شكره وأرفق كتابه بصورة محامي خصمه !

ولكن هذا المحامي الذي جلجل صوته في ساحات القضاء في بريطانيا كان سيء الحظ في حياته الخاصة إذ حدثت جفوة بينه وبين زوجته وكانت حلبة القضاء ميداناً شُهّر فيه بمحامي بريطانيا الأكبر وأصبحت أخصّ علاقاته بزوجته موضوعاً تلوكه الألسنة وتجترّه الأفواه .

والمحامي الفرنسي هو هنري روبير ، وهو متفرّد في صفاته ، عبقريّ في فنّ الكلام وفن الكتابة ، يلعب بالألفاظ لعباً ، ويحاور ويداور ما شاء له المقام حتى يواتيه الظفر بثماره الناضجة

لو أراد لأصبح وزيراً في فرنسا ، ولو شاء لتصدّر الساسة في بلاده في مستهل هذا القرن ولكنه انقطع للمحاماة مفسحاً وقته بعض الشيء للتأليف والتسويد . وليس في الوسع أن أصور هنري روبير كما صوره الأستاذ الجندي . فقد نشره الكاتب من قبره وبث فيه روح الحياة ليراه القارىء نابضاً بالحيوية متجسماً أمام مخيلته .

فاسمعه يقول :

« نحن الآن في المحكمة ، وها هو ذا النائب العمومي يترافع ، وذلك محام هادىء يكاد ينام . ولكنه نهض الآن بادي الرشاقة ، رفيع القامة ، قوي الصوت ، واضح الكلام ، ينطلق في سرعة غريبة كأنه يخشى فوات الميعاد ! إنه يتكلم كأنه يتحدّث ، وها قد مضت بضع دقائق دون أن يظهر إنه محام عظيم ، ولكنه قد أوغل في الصميم ، وحميت الوقدة ، واندلع لهيب النار ، وانساقت الحجة متدافعة معجلة ، فهو يضرب يميناً ، ويضرب شمالا ، كلاعب السيف ، ضربات منظمة ، وأحياناً كثيرة ضربات غير منظمة ، تسحر العيون ... أو كما شبهوه بالحاوي ، إذ يبهر المحلفين بصيحاته وحركاته المتقطعة ، بينما هو يلتقط على أعينهم أعظم شيء في أيديهم ، وهو هنا روح المتهم ! » .

إنه كتاب ممتع ، لأنه كتاب حيّ . لا نقرأ فيه عن أناس ، وإنما نرى فيه أناساً . كتاب كالمعرض أو كشريط السينما يجسم لك الحوادث ويبين لك من ظلالها أمجاد المحاماة وفضائلها . وكاتبه الأستاذ الجندي يمسك بقلمه بإحكام فلا يدع خلجة إلاّ يحسن تصويرها ، ولا يدع زفرة إلاّ يجلوها للعيان .

وديع فلسطين

ظواهر الطرح الروحي

نشرت مكتبة الهلال في الفجالة هذا الكتاب لمؤلفه حضرة **الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير** ويعرف كثيرون من القراء ان حضرة المؤلف توفر على دراسة العلم الروحي وألف فيه كتباً كثيرة وترجم كتباً أخرى عن اللغات الأجنبية ولهذا العلم أنصار في أوربا وغيرها وله في مصر قراء متعددون . والكتاب الذي بين أيدينا يبحث في الأحلام والتواصل الروحي خلالها وطرح الروح خلال النوم والعقل الباطن والوحي والرؤيا الصالحة والموت الظاهري وعلامات الموت الحقيقي والغيبوبة والتخشب وظاهرة التلبثي والتجريب العلمي فيها والسيكومتري (تقصي الأثر في لوحة الفضاء والزمن) وكيف تتجسد الأرواح المطروحة وتتكلم . وفي الكتاب كثير من الصور . ولا شك في أن موضوعات الكتاب وما فيها من طرافة ولذة كفيلة بالاقبال عليه من المهتمين بالشؤون الروحية .

فهرس الجزء الخامس

من المجلد العاشر بعد المئة

٣١٣ وطننا الشرق : اسماعيل مظهر

٣٢١ العائدون (قصة) : محمد طلبة رزق

٣٣١ جريمة أم قصاص (قصة) : ع . ش

٣٣٧ الوضع الاجتماعي : الياس يعقوب

٣٤٩ المرأة في البرلمان : نقولا الحداد

٣٥٣ أمس واليوم — حالة مصر الزراعية والقطن المصري : وديع فلسطين

٣٦٢ المجهر الكهربي : عوض جندي

٣٧٢ مكتبة المقتطف * الطب العربي . قصة النزاع بين الدين والفلسفة . الآداب السامية . تاريخ العصر الحاضر . أحلام الربيع . ١ ـ الله ـ ٢ — الموازنة بين الطائيين للآمدي ، محمد عبد الحليم أبو زيد ـ ١ ـ مصر الظافرة ـ ٢ ـ صحيفة البلاد السعودية : الصيرفي . اختزال واكد ـ ١ ـ أشواك ـ ٢ ـ جرائم واغتيالات القرن العشرين ، وديع فلسطين . ظواهر الطرح الروحي .

٣ — ملحق

١٠١ — ١٤٤ المسرحية في شعر شوقي : تأليف محمود حامد شوكت